الإنسان
وَعَدالة الله في الأرض

بقَلَم
الدكتور محمد سَعيد رَمضان البوطي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطّبعَةِ الثّانية

لم أكن أتصور مدى أهمية الموضوع الذي عالجته في هذه الرسالة، قبل ظهور الطبعة الأولى منها، رغم ما كان يواجهني من الأسئلة الكثيرة حوله.

ولكني علمت فيما بعد، أن هذا الموضوع يعيش عقدة فكرية في أذهان طائفة كبرى من المثقفين والمفكرين، على اختلاف عقائدهم ومشاربهم، ومن ثم فإنه يتخذ أحبولة رائعة من قبل رسل الغزو الفكري لإبعاد الناشئة المسلمة عن مجال الرؤية السليمة الصافية لحقيقة هذا الدين وجوهره.

علمت هذا من الفئات التي أقبلت على دراسة هذا الكتاب، وأكثرها فئات ليست لها في دراسة البحوث الإسلامية أي تجربة سابقة. وليس عندها للإقبال عليها أي شغف أو تطلع.

ولقد اقترح بعضهم أن أتوسع في بعض نقاط هذا البحث، وأفصل القول في بعض مجملاته، ولكني فكرت فرأيت أن أي زيادة فيه يخرجه من الانسجام مع هذه السلسلة من الأبحاث التي ابتغيت لها أيسر سبل الاقتناء وأوجز العبارات في أبسط الأساليب، حتى يتسنى لك طالب معرفة، أياً كان مستواه ومهما كانت شواغله وظروفه، أن يفيد من أبحاث هذه السلسلة ولا يجد أي عثرة في طريق فهمها.

وأنا أصر على أن هذه الأبحاث . بقطع النظر عن مدى التوفيق الذي يحالفني في معالجتها . تقف في قمة ما يحتاج إليه هذا الجيل من المعارف والعلوم. ولست أزعم أن هذا الأسلوب الخفيف السريع يغطي أهمية هذه البحوث تغطية كاملة أو يشبع سائر تطلعات الفكر حولها. ولكني أعتقد أنه باب يلج منه صاحب الفكر الحر إلى الإيمان بها والالتفات إلى قيمتها، حتى إذا بقيت له بقية أسئلة فيها أو استيضاحات متعلقة ببعض جوانبها، كان له من الشغف بمتابعة البحث والشعور بأهميته ما يدفعه إلى التوسع الذي يوضح له كل خافية ويزيل من طريقه كل لبس.

ولقد ابتلي أكثر الناس في هذا العصر، بالقراءة الصحافية السريعة، وهي تربية سيئة خطيرة تلقاها أكثر هذا الجيل في مدرسة هذه الصحف والمجلات. فهو حتى عندما يريد أن يعلم علماً عن أهم المبادئ المنطقية أو الفلسفية أو العلمية المختلفة، يسلك للوصول اليها سبيل أسلوب من هذه الأساليب الصحافية الخفيفة، فإن لم يجد ، قعد في مكانه واستغنى عن القراءة والبحث.

واعتقد أن أقدس مهمة للكاتب الواعي . في هذه الفترة من حياتنا . هي أن يصطفي من هذا الأسلوب الصحافي الخفيف مذهباً يتسم بالرصانة والضبط، ثم يرتقي بالقارئ منه إلى المستوى العلمي الكامل بكل ما لديه من وسائل التصعيد والتشويق.

***

وبعد فإن الحديث عن (الإنسان وعدالة الله في الأرض) يمكن أن يعالج في أدق الكتب الفلسفية والعلمية العويصة كما يحب البعض، ويمكن أن يعالج أيضاً في رسالة وجيزة سهلة المورد عذبة الأسلوب.

وشبابنا اليوم (بمجموعه) أحوج إلى المنهج الثاني منه إلى المنهج الأول.

محمد سعيد رمضان

دمشق/٢٥ جمادى الثانية سنة ١٣٩٢

مقدّمة الطّبعَةِ الأولى

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، سبحانك اللهم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

***

وبعد، فقد تلقيت منذ زمن سؤالاً هذا نصه:

(الله عادل ورحيم، فلماذا ترك في المجتمع أشخاصا كثيرين يعنون دون ذنب ولا جريرة، من عاهات ومصائب يتقطع لها قلب الإنسان، في الوقت الذي ترك فيه أشخاصاً آخرين يتقلبون في ألوان النعيم، دون أي مزية لهم تستدعي ذلك؟ وأينما كان العدل بين حال هذين الفريقين؟)

وهو سؤال طرح علي في قاعات الدرس والمحاضرات وفي المناسبات والمجالس المختلفة، خمرات كثيرة، لا أستطيع حصرها في عدد معين!..

وأظن أن ثمة من يعنى بزرع هذا السؤال في أدمغة الناس، ثم يعنى بإعادة زرعة فيها كلما أينع واستحصد واستقبل الجواب الشافي المفيد.

وكأنما يتصور هؤلاء الذين يتعهدون غراسه بهذه الرعاية العجيبة، أنه عقدة العقد، وأنه الضمانة لإفساد عقيدة المؤمنين بربهم عز وجل، وأنه يفعل في فكر أرباب التأمل والبحث ما تفعله القنبلة الموقوتة، ما تلبث أن تنفجر بالدمار على كل ما هو مخزون فيه من الحقائق والمبادئ الإسلامية المختلفة.

وشعرت، إذ تنبهت إلى هذا، بأن الإجابات الشفهية على مثل هذا السؤال لا تكفي. بل لا بد من تسجيلها باستيعاب وتفصيل، في كتيب، يكون في متناول جميع هؤلاء الذين يطوف من حولهم هذا السؤال، أو يحاول التسلل . بكل ما . إلى ادمغتهم وأفكارهم.

وكنت قد نشرت مقالاً في مجلة (الوعي الإسلامي) الكويتية، أجبت فيه إجابة مختصرة عن هذا السؤال، ما أظن أنها وقعت موقع الكفاية في معالجة هذا البحث من سائر أطرافه، فاتخذت مما جاء في ذاك المقال نواة بحث شامل ضمنته هذه الرسالة.

وأنا أقدمها إلى فريقين من الناس.

أحدهما هذا الجمهور الكبير الذي يملك إيماناً بالله ورسوله واليوم الآخر. ولكنه لا يملك ثقافة إسلامية كافية، تدرأ عن إيمانه الشبه والمشكلات التي يقذف بها أليه رسل الغزو الفكري، فهو لا يفتأ يتطلع . في شغف وإخلاص . إلى معرفة سريعة كافية في تبديدها والقضاء عليها.

ثانيهما قلة من الناس، تسلل الإلحاد في دين الله إلى أفكارهم، تحت وطأة ظروف استثنائية خاصة مرت بكل منهم، لا تعدو ان تكون واحدة مما يلي: وسواءاً ألصقه بذهنه أحد الملاحدة المحترفين، على نحو خبيث، إذ أيقظ زاوية من زوايا عقله لثورة فكرية حادة، على حين ترك الجوانب الأخرى تغط في رقاد ثقيل، فراح عقله يتأمل الدنيا بما يشبه العين العوراء: يرى الأشياء في غير جهاتها، ويتخيلها أكثر من ذاتها. ويبصر فيها أطيافاً من الوهم لا حقيقة لها.

أو عقداً نفسية استحكمت لديه ثم استفحلت بين جوانحه، بسبب مظاهر دينية زائفة في الفكر أو السلوك، رآها، فخدع بها، فاشمأزت نفسه من الدين كله من أجلها، ثم تحول اشمئزاز النفس إلى استجابة إلحادية في العقل.

أو صدمة بلاء أصابه فلم يقو على احتماله، أو مصلحة دنيا لاحت له على البعد وتخيل أن ليس بينه وبينها إلا أن يجتاز قنطرة إلحاد وفسوق نصبت سبيلاً اليها، فلما توسط القنطرة وجد نفسه حبيساً عندها، فلا هو اجتازها إلى الغاية التي كان قد قصدها، ولا هو عاد إلى البداية التي كان واقفاً عندها.

أجل.. فأنا أقدم هذه الرسالة إلى كلا هذين الفريقين. وربما كنت آمل الخير في إقبال الفريق الثاني عليها أكثر من الأول . وإني لأعلم أن بينهم وبين أمثال هذه الكتب حواجز استغلظت مع الزمن وأحداثه المختلفة.. فليس في نفوسهم ما ينهضهم إلى البحث عنها أو الإقبال عليها، أو مواصلة القراءة فيها.

ولكن أسأل الله تعالى أن يقيض من لدنه سبيلاً تصل منه رسالتي هذه إلى أيديهم وأن منحهم من الصبر على قراءتها على ما يجعلهم يتدبرونها في روية ويتأملونها على مهل.

فعسى أن يصحو الكثير منهم إلى حقيقة الأمر، وعسى أن يبادروا فيتمسكوا بها بعد طول إعراض وذهول عنها، وعسى أن تستضيء قلوبهم بهدي الإيمان بالله عز وجل قل أن يصل بهم قطار العمر إلى آخر مراحل الحياة.

وحسبي من القارئ الكريم أن يكون حراً عندما يقرأ، لا يجعل من ثقافته وقراءته الجديدة غذاء أو سياج لأفكاره القديمة، بل يتخذ مما يقرأ وافداً جديداً على عقله يوسع له فيه مكاناً للفحص والبحث دون أي عصبية أو تحيز. ثم أن لا يقف عن مواصلة البحث، مكتفياً بإدراك نصف الحقيقة أو الوصول إلى جزء يسير منها. فإن إدراك جزء الحقيقة أشد ضرراً من الجهل بها. وما ضر الفكر الإسلامي اليوم شيء كتلك الثقافة المجزأة المشوهة عن الإسلام إذ يقبل عليها الناس في ثنايا بحوث صحفية سريعة تفيض بها الجرائد والمجلات، ثم يستيقنونها دون أن يتبعوها بأي تحقيق فيها أو استيعاب لها. وتصبح بعد ذلك تلك الثقافة المقلوبة المجزأة من المسائل البدهية فيه، في وهم جمهور كبير من الناس.

***

أما فريق ثالث، اتخذوا من الجحود بالله والإلحاد في دينه، هواية لهم، يتلمسون فيها سعادة قلوبهم وطمأنينة نفوسهم، ويتخذون من الدعوة اليها شغلهم الشاغل . فلسنا من هؤلاء الناس في شيء، ولا يغنيهم مثل هذه الأبحاث . مهما كانت غنية بموازين العلم والمنطق . أي غناء، وإنما هم مثل أولئك الذين قال الله عنهم:

(ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون، لقالوا انما سكرت أبصارنا، بل نحن قوم مسحورون).

ولكنا نسأل الله تعالى لنا ولهم الهداية إلى الحق والوقاية عن الضلال، ونعمة التحرر الفري عن أي تبعية أو عصبية مما من شأنه أن يأسر الفكر والعقل.

والله ولي التوفيق

دمشق ١٠ذي القعدة سنة ١٣٩١

محمد سعيد رمضان البوطي

هَل السَّائِل مُؤمنُ باللهِ

يجري مثل هذا السؤال عادة، على ألسنة أشخاص لا يؤمنوا بالله ولا يقرون بوجوده. قد تجمع في نفوسهم من كراهية الدين وأصوله ما جعلهم يزدرون مظاهر الإيمان التي يتحلى بها المؤمنون، ويخططون السبل والوسائل لبث الشكوك عن الله ووجوده في نفوسهم. فهم يصطنعون المشكلات اصطناعاً لإثارتها وحجب العقول عن معرفة الحق بغشاواتها.

وجحود الدين عند هؤلاء الناس متعة ذاتية استهوتها نفوسهم، قبل أن يعرضوا أمرها على عقولهم. ولما طاب لأنفسهم ذلك وركنوا إلى ثماره الشهية في الحياة. والسلوك، راحوا يسخرون طاقاتهم العقلية لشهواتهم النفسية ، وأخذوا يبنون على جحودهم السابق أحكاماً فكرية واعتقادية لم تتفرع إلا عن سلطان ذلك الجحود نفسه.

فقد وضعوا الفرضية كما شائته أهواؤهم، ثم شققوا وفرعوا عنها المقتضيات العقلية، وراحوا يناقشون بها الناس، وقد كانت أبعد ما تكون عنهم عندما أغمضوا أعينهم وغرسوا تلك الفرضية الأساسية الأولى في أعماق قلوبهم!..

إن شأنهم هذا أشبه بحال من اشتهى أن ينكر اختصاص باحث في علم من العلوم، فمتى يسفه بناء على ذلك أفكاره. ثم أخذ يجعل من هذا التسفيه برهاناً على ما كان قد أدعاه من جهله وعدم خبرته واختصاصه.. وهو لو تنبه إلى أمر نفسه لعلم أنه دائر وسط حلقة من وهم تصوراته. فلولا ما توهمه أولاً من جهل الباحث، لما تصور بحوثه سفاهة وخطأ. ولولا هذا التصور لما عثر على أي برهان على صدق وهمه الأول.

أي فهم لم يتوفروا . بادئ الأمر . على يقين صادق بوجود الله تعالى. إذ توفروا على ذلك، لأيقنوا أنه أحكم الحاكمين فالإله لا يكون إلا كذلك. ولو أيقنوا ذلك لآمنوا برسالات الأنبياء وما تضمنته من تعريف بحقيقة هذه الحياة الدنيا ومبدئها ومنتهاها وعلاقتها بما وراءها. ولو آمنوا بذلك، لأدركوا سر وجود الإنسان إياها في هذه المرحلة من الحياة.. ولأدركوا إذا أن ليس في شيء من مظاهرها ما يثير في النفس إشكالاً أو يرد الباحث إلى أي شك أو جحود، ولوجدوا كل ما فيها متسقاً مع طبيعة هذه الأمانة أتم ما يكون الاتساق، وأنه يشكل أدق وأقوم تمهيد لواقع الحياة الخالدة الأخرى.

أجل.. كل هذه المدركات اليقينية، إنما ينبع من يقين عظيم آخر سابق عليه، هو الايمان بالله عز وجل. ولن ينتهي من دونه لغز هذا الكون، ولا يتخلص الفكر بغيره من دوامة نظر عابث لا طائل منه.

وهؤلاء الذين يتعامون عن هذه الحقيقة الواضحة للعيان إنما يدورون وسط حلقة مفرغة لا طرف لها. وقد ارتضوا أن فعلوا بأنفسهم ذلك، أملاً بأن تنعكس دوامتهم الفكرية على آخرين من حولهم، عسى أن يقعوا صرعى في شرك أوهامهم، ثم لا يجدوا سبيلاً للانفلات والخروج!..

وهؤلاء الناس، ما ينبغي أن يلتفت اليهم ببحث ولا نقاش!..

وإن كان ثمة من سبيل إلى كلمة تقال لهم، فلتكن جملة لا مزيد عليها، وهي:

دعوا البحث في هذه المسألة الفرعية، فلو اجتمع أهل الأرض كلهم من حولكم ليجيبوا عليها، لما وقع كلامهم من عقولكم أي موقع للقناعة والقبول. وعودوا إلى النظر في المشكلة الحقيقية الأولى، مشكلة الذهول عن الإيمان بالخالق جل جلاله. واطرحوا السؤال والبحث ضمن هذه الحقيقة الجذرية الأولى دون أن تروغوا عنه إلى لامثل هذه الأوهام التي لم تتفرع إلا عن جهلكم بها وقفزكم من فوقها.

***

إلا أن من حول هؤلاء الناس جماعات أخرى، لم يكفروا بالله مثل كفرهم، ولم يحترفوا دعوة الإلحاد احترافا، وربما كانوا على جانب من الإيمان بالله ووحدانيته. ولكنهم لم يتوفروا على دراية كافية تشبع تطلعاتهم الفكرية في مجال العقيدة الإسلامية وأسسها، فتهزهم هذه الأسئلة التي يطرحها محترفو الغزو الفكري، ويقعون منها في اضطراب ووساوس لا يهتدون إلى سبيل للتخلص منها. فكان لابد من الإجابة عليها بتبسيط وتفصيل، لا فإسكات محترفي الإلحاد، بل لتفهيم من يصدقون في طلب الفهم، وما وجدت عبادة يتقرب بها إلى الله عز وجل أفضل وأعظم من أن تعثر على إنسان ضيعه الماكرون عن الطريق، فتقبل أليه في رحمة وأناة لتضعه على فم الطريق السليم.

وصلى الله وسلم على من قال: لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس[1][1].

ما معنى المِحنةِ؟

ونحن نبدأ فنقول: ما معنى المحنة؟.. ومن أين لك أن المحنة لا تتمثل إلا في هذا الذي بترت يده أو عميت عينه أو استحكمت به عاهة؟.. بل من قال لك: إن المحنة هي تلك التي يصطبغ بها ظاهر الإنسان وتتجسد واضحة في ناحية من أنحاء جسمه؟

إنما المحنة ما تسلل إلى طوايا النفس، فأصاب بمرارته أو بحرقته القلب.

---

[1][1] متفق عليه.

والمحنة إذا ليست هذا الذي عيناك من مظاهر بعض الناس وإنما هي ما لا تراه عيناك ولا يدركه شعورك مما قد يطوف بنفوسهم ويستحكم بأفئدتهم ومشاعرهم. وسبيلها اليهم أهم وأشمل مما قد تظن.. وما من إنسان إلا وهو واقع فيها وذائق من عذابها.

وأصل الخطأ في هذا الأمر أنك قد تجد رجلاً أصم أو أبكم في الطريق، فيهتز فؤادك إشفاقاً على حاله، وتجزم بأن نفسه تتقطع بين جنبيه ألماً، وأن قلبه يذوب حسرات. وتبصر آخر إلى جانبه ينهب الأرض بسيارته الفخمة وقد لاحت هالة السعادة والغنى حول وجهه فتجزم بأن نفسه ترقص بين جنبيه فرحاً،وأن له قلباً لا يستفيق من سكر السعادة والانشراح.

نجزم بهذا وذاك، وأنت لم تطلع على قلب أحد منهما . ولو اطلعت، لعلمت أن المقياس الذي اعتمدت عليه غير مطرد الدلالة على ما ظننت وأن أسباب السعادة والشقاء لا تنحصر في تكل المظاهر التي تتلبس الجسم، ومن أكبر الخطأ أن تربط بين حالة القلب وهذه المظاهر.

إن الذي تضل به سيارته عن طريق غايته، ويقع في تيه لا يدري إلى أي مصير سيسلمه، إنما يعاني من محنة خانقة، ولو كان محفوفاً وسط ضلالته تلك بخضرة الرياض وفرح الرياحين.

والذي أوقعته ظروف التجارة ومغباتها، في خسارة مالية غير متوقعة، وهو ممن يرقص لمرأى القرش، وتأخذه النشوة لحركة توالده وتزايده، إنما تتقطع نفسه حسرات تحت رحى محنة قاسية يعجز عن وصفها البيان، وإن كنت تراه في عيش رغيد وسط دار جميلة آمنة.

والذي تعلق قلبه من الدنيا بحسناء، وراح يتصور أن الوان النعيم كلها ستفيض في كنانه إن هو سكن اليها، وفيما هو ينسج في خياله الآمال، ويحدث الدهر عن أمانيه، ويأمل عنده الخير في إنجازها، إذ ضرب الدهر بينه وبينها بسور غليظ حال بينه وبين جميع آماله . هذا الإنسان يلتف به من سعار المحنة ما يشبه أكفاناً من اللهب، لا يطفئها عنه أفراح الدنيا كلها ولا فنون اللذة بأسرها. وقد تبصره فلا تقع عينيك منه إلا على ما تغبطه فيه أو تحسده عليه.

والذي ساقه الشقاء إلى حياة من اللهو والإباحية المطلقة، فهو يسهر الليل كله في معاقرة اللذة واعتصارها، حتى إذا أقبل النهار طارده بنوم ثقيل متواصل، ولا يزال هذا دأبه ولون حياته . إنما تحسبه سعيداً ، وهو يميس في حلة (السهرة) تحت أضواء من الليل ساطعة أو خافتة، ولو علمت دخيلة أمره، ووصلت إلى طية نفسه، لرأيت وراء صدره مرجلاً من الهم تتصاعد منه الزفرات المذيبة الخانقة، ولرأيت النوم في حساب حياته ليس إلا (كابوساً) من سحائب الغم والنكد، يتغشى الظاهر من شعوره وعقله، على حين لا يكون في حساب سائر الناس وشعورهم إلا واحة من الراحة والنعيم يتفيئون ظلالها كلما فاض بهما الجهد والنصب.

والذي استغلقت عليه منافذ الإيمان بالله تعالى. فتتابعت على فكره الأسئلة المتنوعة المختلفة عن الكون والإنسان وسر وجوده وعاقبة أمره، دون أن يجد عليها جواباً شافياً، وثارت في نفسه عوامل الرعب والألم للذي يراه حوله من مظاهر الهرج والمرج والتطاحن والعدوان والبغي، حتى راح يتخيل مظاهر الترف والنعيم خلال ذلك أشبه ما تكون ببروق مرعبة خاطفة تومض في ليلة عاصفة ظلماء، فهي تنذر بالشر أكثر مما تؤنس أو تنير السبيل، دون أن يهتدي من وراء ذلك كله إلى سر ولا تأويل . هذا الإنسان قد تراه فتحسبه سعيداً، وهو إنما يعيش في رعب مطبق على نفسه. ولو أبصرت، لوجدت المحنة تتسلل منها إلى جذور تفكيره وعقله، لتقذف به أخيراً إما إلى ساحة جنون أو إلى سبيل انتحار [٢][2].

وبالمقابل، فإن كثيراً ممن سلبهم الله تعالى نعمة البصر يتمتعون بنفس راضية سعيدة لا تعرف الهم.

وكثير ممن ترى عليهم أشد مظاهر البؤس والفقر، تظل أفئدتهم نابضة بمرح رائع عجيب قد لا تتصوره إلا في ذكريات طفولتك.

---

[٢][2] كثيراً ما زارني شبان يكون عقدة الحيرة الفكرية في حياتهم، وقد أطلعني الكثير منهم على واقع أليم يعيشون فيه قد يزيد كثيراً على ما يعنيه أصحاب المحن والمآسي الظاهرة وهم جميعاً يتمتعون فيما يبدو وبكل ما يعتبره الناس من أسباب الرفاهية والنعيم، ومن أهم مظاهر هذا البؤس أن صاحبه يشكو إليك حاله دون أن يملك وضع يدك على مكمن الداء فيه وهذا ما يزيده ضجراً واختناقاً. ومن أهم مظاهره أيضاً تزايد من يسمونهم بالأطباء النفسانيين في كل مكان وتزايد النشرات والكتب التي تتعلق بهذا الموضوع وإقبال الجمهور عليها بشدة دون أن ترى أي فائدة لشيء منها.

وكثير ممن ترى الأمراض والأوجاع مستحكمة في جسومهم، يعيشون وسط مزيج من الشعور بآلامهم والرضى القلبي العميق عن واقع حياتهم وما أقامهم الله تعالى فيه.

على أني لست اقصد بهذا أن المحن الظاهرة على الجسم مصائب وهمية لا سلطان لها على النفس، وإنما أريد أن ألفت نظر القارئ إلا أن العبرة بما تشعر به النفس، وبما قد تتلون به حالة القلب، وأن أوضح بأن المصائب التي قد يكون لها سلطان على المشاعر، ليست محصورة في هذا الذي تراه متلبساً بمظهر بعض الناس، فترق لحالهم أو تتألم لما هم فيه، بلا هي مختلفة متنوعة، وقل أن ترى رجلاً من الناس إلا وهو مصاب بنوع منها.

ونقول، في كلمة مختصرة: ليس الشقاء الذي قد ينزل بأحد الناس نابعاً من وقع المصيبة ذاتها مهما اختلفت وتنوعت، وإنما هو نابع من عدم اتساع النفس لها واستعلائها عليها.

وإذا، فإن أول ما ينبغي أن تعلمه من الجواب على هذا السؤال، أنه يقوم على خطأ بالغ في صياغته وتركيبه. وإذا ما أريد عرضه بصياغة سليمة، ينبغي أن يوجه على الشكل التالي:

لماذا يتفاوت الناس في مشاعرهم القلبية ما بين ضيق وانشراح، وقد كان ظاهر الرحمة والعدل الإلهي يقضي بأن يتساووا في مشاعر السعادة والانشراح؟!..

سَبيلان لا ثالثَ لَهُمَا

وذا تأملت، علمت أنه لا سبيل أمام الإنسان لإحراز مشاعر الرضى والانشراح في قلبه، إلا بإحدى وسيلتين:

الوسيلة الأولى: أن يملك الإنسان طاقة خارقة يبعد بها عن نفسه حديث الفكر وتشويش العقل ومنغصات الخيال. إذ إن أكثر ما يصاب به الإنسان من أكدار القلب وهموم النفس، إنما يأتي بسبب طول التفكر أو ملاحقة التخيل او تساؤلات العقل. يذكر الماضي فيألم لما قد فاته من مظاهر الخير وأسبابه، ويتخيل المستقبل فيألم لما قد يتثور فيه من المنغصات وأسباب الآلام، فتتحول بذلك لحظات الحاضر التي تمر بحياته إلى مورد لهموم الماضي ومخاوف المستقبل.

فلو أتيح له أن يلجأ إلى النسيان والأمل، أو إلى الذهول والأعراض، لانزلقت عن قلبه المصائب فما شعر بها وما أهمه سوء وقعها.

ولكن الفاطر الحكيم جل جلاله، لم يشأ أن يعطي الإنسان، العزيز الكريم، هذه الطاقة.

بل أثقله بأعباء جسمية من المشاعر والفكر والعقل، وحمله إلى ذلك أثقالاً عظيمة من صور الماضي وآثاره، وأخيلة وتقديرات مختلفة عما يحمله في طيه المستقبل.

ذلك لأن الله تعالى جعل الإنسان سيد هذا الكون، ووكل أليه أمر عمارة الدنيا وتدبيرها وفي سبيل ذلك سخر له ما في السموات والأرض وأسبغ عليه النعم المختلفة ظاهرة وباطنة.

وإنما يقوم تدبير الدنيا على خيال يتذكر الإنسان به الماضي، وفكر يحذره من وقائع المستقبل، وعقل يمزج هذا بذاك ويستخرج منهما قواعد الحياة ومناهج التدبير.

فالخيال يتصور ولا مناص للإنسان من الانفلات عنه، والفكر يتنبأ ولا مفر للإنسان من التغاضي عنه، والعقل بينهما يقدر ويدبر وليس من سبيل للتحرر منه، وكل هذه الأمور الثلاثة تظل مشحونة بما تفور به الدنيا من أسباب الخير والشر واللذائذ والآلام.

من أجل هذا، كان الذين يملكون طاقة التحرر من هذا كله هم المجانين فقط!.. ولذلك كانوا صفوة الناس، في عدم شعورهم بشيء من الأكدار والهموم.

وإذا فهذه الوسيلة ممنوعة عن العقلاء، وقد قضى الله تعالى بأن يكونوا أكرم من أن ينزلوا اليها فيفقدوا بذلك المزية التي ارتفعوا بها عن سائر أصناف الحيوانات.

الوسيلة الثانية: ان يوقن الإنسان بوجود الله عز وجل ثم يلقي السمع إلى بيانه عن حقيقة الإنسان وهويته وعن قصة هذه الحياة ونشأتها ومراحلها، وعن مسؤوليته وعن قصة هذه الحياة ونشأتها ومراحلها، وعن مسؤولية الإنسان فيها، فيدرك أنه عبد مملوك . بكل معنى الكلمة . لله تعالى، ويستيقن وجود الحياة الآخرة وقيمة هذه الحياة الدنيا بالنسبة لها.

ثم إن يقف طويلاً عند قوله تعالى: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) وعند قوله عز وجل: (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبون، وكان ربك بصيراً)، وعند قوله عز وجل:(ولنبلونك بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين) فيدرك منها وظيفة الإنسان أمام خالقه في هذه الحياة الدنيا، ألا وهي ممارسة حقيقة العبودية لله عز وجل، بأن يرضى، في طواعية وخضوع، بكل ما قد قضى وحكم عليه به، فلا يضجر إن أصابه بلاء، ولا يتمرد على حكم الله إن أطبق عليه أي كرب. ثم يدرك أن الله عز وجل أحكم الحاكمين وأعدل العادلين، فلا يضيع للإنسان جهداً بذله في سبيل خير، ولا يهمل له حقاً أغتصبه منه ظالم، ولا يترك له أي ظلم اقترفه أو جريرة اكتسبها، بل يقضي بين عباده في ذلك كله يوم الجزاء الموعود. فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

وهذه فقط هي الوسيلة التي يمكن للإنسان، إذا شاء، أن يحرز عن طريقها لنفسه مشاعر السعادة والرضى، مهما تقلبت عليه الأحوال والظروف.

وهي الدواء الوحيد الذي وضعه الله تعالى علاجاً للإنسان للتخلص من هذه المشكلة التي يسأل عنها ويبحث عن خلاص منها.

فأنت لا تستطيع أن تتحكم في نظام الكون ولا أن تبدل أو تغير شيئاً من مظاهر سنة الله فيه، فهو كون ألفه الله منذ أن خلقه، من شتى مظاهر الخير والشر، والبؤس والنعيم، واللذائذ والآلام. ولم يقدر إلى هذا اليوم أحد، ولن يستطيع بعد اليوم أحد، أن يغير فيه شيئاً من هذا المزيج أو أن ينسخ شيئاً من شروره وآلامه.

ولكنك تستطيع أن تتحكم في مشاعرك وأحاسيسك التي بها يتكون معنى كل من الخير والشر. تستطيع أن تتحكم بمشاعرك نحوهما باتباع هذه الوسيلة الثانية التي أجملت لك بيانها.

وإلى هذه الوسيلة الاشارة في حديثه عليه الصلاة والسلام: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابه سراء شكر فكان خيراً له، وإن اصابته ضراء صبر فكان خيراً له).

سِرُّ هذا كِلِهِ!..

وقد تسأل: ففيم شاءت إرادة الله تعالى أن يشحن هذه الحياة الدنيا بمزيج من الخير والشر واللذائذ والآلام وقد كان قادراً على أن يجعلها مزدانة بأسباب اللذة وحدها صافية عن الأكدار والآلام.

بل فيم أرهق الإنسان يقف يحمل هذه الاثقال كلها، حتى يعيش مهيضاً حائراً تحت وطأتها، ولم يكن مستحيلاً على الله تعالى أن يحمله نعمة العقل دون أن يربط به ذيولاً من النتائج المؤلمة.. بل فيم كانت المعرفة مقرونة بنكد الحياة ومصائبها؟

والجواب: أن إرادة الله تعالى شاءت أن يكون الإنسان أعظم مظهر لألوهيته سبحانه وتعالى، وأبين لسان ناطق بسر الوجود كله. والشكل الذي شاءت حكمة الله ان يظهر فيه ذلك كله، هو عمارة الكون عن طريق ممارسة العبودية الصادقة له[٣][3].

---

[٣][3] ليس لك أن تتابع السؤال فتقول: فلماذا شاء الله تعالى ذلك، لأن أي جواب يرد عليه يمكن أن يقابل هو أيضاً بنفس السؤال: فلماذا شاء الله ذلك. وملاحقة البحث في أفعال الله تعالى بهذا السؤال خطأ كبير. لأنك إنما تتخيل أن ثمة ما يجبره على تصرف معين . على نحو ما يكون منا نحن البشر . فأنت تيعة لمعرفة هذا السبب المجبر، وهو خيال خاطئ لا موجب له، لان ارادة الله تعالى تامة لا يشوبها نقص بسبب ما يجبره أو بحمله على شيء ما كعادة البشر. وإنما لك أن تسال عن الحكمة فقط، وقد أوضحنا الحمة فيما مضى، والله يفعل ما يشاء، ولا يسأل عما يفعل. وذلك من أوضح مستلزمات الوهيته.

وممارسة العبودية الصادقة لله تعالى، لا تتم، إلا بأن يكون الإنسان عبداً لله تعالى بالسلوك والاختيار، كما قد قضى عليه بالعبودية له بالخلق والاضطرار، أي بأن يعترف بحقيقة العبودية الكامنة في طبيعته البشرية ثم ينسق ويلائم بين هذه الحقيقة الكامنة في ذاته، ومختلف تصرفاته الارادية والسلوكية في حياته، فبذلك يخضع الإنسان لمعنى عبوديته لله عز وجل.

وإنما يظهر ذلك التنسيق والتلاؤم بقبول التكاليف الواردة اليه من الله تعالى، أي بقبول السير في طريق من الحياة فيها كلفة ومشقة، لا لشيء إلا ابتغاء الحصول على مرضاة الله عز وجل.

ولا يتم شيء من ذلك إلا بتكامل أسباب الأهلية في الإنسان من عقل ورشد وسلامة تفكير، بما يستتبعه ذلك كله من مخاوف وآمال.

ولما كانت مادة التكاليف مستمدة من الحياة وما فيها، فقد كان لابد إذا أن تكون الحياة مزيجاً من المسرات والمتاعب واللذائذ والآلام.

وأي استكمال أو اعتراض على هذا الكلام، انما يعني التبرم بالتكاليف التي شرف الله الإنسان بها. ومثل هذا التبرم لا يلتفت اليه وليس للمنطق سبيل إلى النقاش فيه. فإن الذي يعترض قائلاً: لماذا جعلني الله عبداً له ولم يملكني أمر نفسي لأتصرف كما أريد . لا يمكن المنطق السليم جواباً على اعتراضه إلا أن يحيله إلى صاحب العلاقة ذاته. فليتقدم إلى رب العزة جل جلاله يوم القيامة . إذا شاء . بهذا الاعتراض وليسأله لماذا جعله عبداً له ولم يملكه أمر نفسه!!!...[٤][4]

ينبوُع التَكاليفِ وَالمشقّاتِ

ثم إن قوام مشقات الحياة التي تنهض التكاليف الإلهية على أساسها، أمران اثنان:

صعوبات يراد من الإنسان الصمود لها والصبر عليها، وخيرات يراد منه الشر عليها والكف عن الاستغراق فيها. وكلاهما يدخل تحت قاسم مشترك من مشقات الحياة وشدائدها.

وأنت قد تظن أن مشقات الحياة محصورة في القسم الأول منهما، وأن الثاني أبعد ما يكون عن معنى المشقة والتكليف، وقد تسخر قائلاً: ومن الذي يبتلى بامتلاك كنز من المال ثم لا يرقص فؤاده فرحاً بهذا الابتلاء؟!.

ولكن أعلم أن هذا التصور خطأ فادح، سببه عدم فهمك للمعنى المقصود بهذا الابتلاء. واليك بيان ذلك:

إن محور الابتلاء بالنسبة لمن اغدق الله عليه الخيرات، إنما هو تكليفه بالشكر عليها.

وليس معنى الشكر ما قد تظنه من تحريك اللسان بالثناء وإنما هو تسخير الإنسان جميع ما أنعم الله به عليه لما قد خلق من أجله. أي أن لا يستعمل شيئاً من تلك النعم في أمر غير مشروع، وليس هذا فقط بل عليه أن يستخدمه في سبيل المبدأ الذي خلق من أجله، فإن لم يفعل ذلك، وأنحرف في الاستفادة من تلك النعم، عن هذا الصراط الذي ألزم به، انقلبت النعمة كلها وبالاً وشقاء عليه فيما بعد.

وإنما مثال ذلك رجل فقير معوز تهفو نفسه بشدة إلى نعيم الدنيا بشتى صنوفه وألوانه، آتته الدولة مالاً وفيراً وجعلته تحت سلطانه، ولكنها شرطت عليه ان يقف من هذا المال موقف الحارس الأمين، وأن لا ينفق منه على نفسه الا قدر الحاجة وضمن شروط معينة. فإن تجاوز الشرط وتوسع في الانفاق عوقب على ذلك العقاب الشديد.

فما من ريب أن هذا الرجل إذا افلح في السيطرة على نوازع نفسه، فوقف عند الحدود التي ألزم بها، ثم أمسك يده عن المال الذي هو تحت سلطانه، وفطم نفسه عن تطلعاتها وشهواتها، كان من عداد الأبطال في القدرة على ضبط النفس وتحقيق مبدأ الأمانة في أشق الظروف والأحوال.

---

[٤][4] قد يكون مثل هذا المعترض غير مؤمن. في طوية نفسه . بوجود الله عز وجل. ولكنه طالما لا يكشف عن حقيقة جحوده ويخادعها بهذا الكلام، فإن هذا هو الجواب المنطقي السليم. أما عندما يضطر إلى الكشف عن كفره، فإن كل هذه الجزئيات الفرعية يغدو حديثاً غير ذي موضوع لأنه سابق لأوانه ولا بد من الرجوع عندئذ إلى أول الطريق وأساس المسألة كلها وهو البحث في وجود الله عز وجل.

اجل.. أن الرجل الذي يرى مختلف شهوات الدنيا وملاذها فيجد أن الأقدار قد وضعت مفاتيح سائر هذه الأبواب في يده، ثم لم يستعمل منها لا المفتاح الوحيد الذي شرعه الله له، وترك الأبواب الكثيرة الأخرى مغلقة أمامه، يتراءى له من وراءها النعيم الذي هو في متناول يده وهو صابر ومعرض عنه . الرجل يعاني من صعوبة قد تفوق الصعوبة التي يعانيها من أبتلي بفقر اضطراري فرضي كارهاً به.
إن الفقير الذي لم يكن له في فقره اختيار، ليس أمامه لمعالجة ذلك إلا سبيل الصبر، شاء ذلك أو لم يشأ. أما الغني الذي يملك بغناه مفاتيح الشهوات والملاذ المختلفة التي يدري طعمها ويعلم مدى ما تهفو نفسه اليها، ثم يستعلي فوقها ولا يتلقف منها الا ذلك النذر اليسير الذي يخضع للشروط والقيود الشرعية التي وصفها الله عز وجل [5]فإن له من فضيلة هذا السلوك الاختياري ما يجعله في مرتبة اسمى من ذلك الفقير الذي لم يكن له في فقره أي اختيار.
من أجل هذا أجمع جمهور العلماء على أن الغني الشاكر أفضل عند الله تعالى من الفقير الصابر. إذ الحقيقة ان كلاهما صابر، ولكن أحدهما صابر عن شيء يملك أن يناله ويستمتع به والثاني صابر عما لا يملك سبيلاً للحصول عليه. وللتفريق بينهما سمي الأول شاكراً والآخر صابراً، ولبيان أفضلية الأول وندرته يقول الله تعالى:(وقليل من عبادي الشكور).
وهكذا تعلم إذا، أن الابتلاء بالغنى وأسباب النعمة والرخاء، ليس أقل خطورة وصعوبة من الابتلاء بالفقر وأسباب الشدائد الأخرى.
وتأمل كيف أوضح البيان الإلهي هذه الحقيقة، عندما بسط مفهوم الابتلاء على كل من الخير والشر فقال (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون).

الّذينَ لا يفهَمونَ هذا الكلاَم

ومع ذلك، فإن فريقاً من الناس قد لا يفقه شيئاً من هذه الحقيقة التي أوضحناها، ولا يقنع بها. وربما ظل يقول ساخراً:
فليبعد الإله عني أسباب الشرور والفقر، ثم ليمتحنني بشدائد الخير والغنى كما يريد، سواء أنجحت أم رسبت في الامتحان!.. أي فهو لا يرى في الابتلاء بنعيم الدنيا شيئاً من حقيقة الشدة أو المشقة التي وصفناها.
وعذر هذا الفريق، أنهم غير مصدقين . في أعماق نفوسهم . بوجود الله عز وجل وباليوم الآخر وما يستتبعه من حساب ونعيم وعذاب خالدين يرتبطان بسلوك الإنسان في هذه الحياة الدنيا.
وإنما محور حديثنا كله، في شرح هذا الموضوع، هو الايمان اليقيني بوجود الخالق الواحد الأحد جل جلاله، والإيمان بصدق ما أخبر به في كتابه، وعلى لسان نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، بل على لسان سائر الأنبياء من قبله عليهم صلوات الله وسلامه . من قيام الناس جميعاً بعد موتهم لرب العالمين وقدوم كل منهم على جزاء ما قد فعل في دنياه من خير وشر.
فأما من لم يضع في حسابه هذا المحور الأساسي، فشيء منطقي جداً بالنسبة اليه أن لا يصدق شيئاً مما نقول، لأنه لا يقف معنا على الأرض التي تحتضن جذور هذه المسألة من حيث هي. ولكن ليس منطقياً ابداً، أن يتجاهل اختلافه معنا في هذا المنطق الأساسي، ثم يمضي يضيع الوقت الثمين في مناقشة هذه المسألة الفرعية الصغرى.
وعلى كل فنحن نتمم شرح هذه المسألة من شتى الجوانب والاعتبارت، فنقول:

---

[5] نقول: النذر اليسير، لأن الأصناف المشروعة من مظاهر النعيم والشهوات الدنيوية، تعد . إذا ما قورنت بغيرها . نذراً يسيراً، خصوصاً إذا علمت أن كل ما يشغل العبد عن ربه من مظاهر الرفاهية والنعيم يعد وبالاً على الإنسان وشراً له في عقباه. وهذا معنى قول رسول الله(ص): الدنيا ملعونة ملعون ما فيها غلا ذكر الله وما والاه. على أن المباحات نفسها قد تنقلب في حالات كثيرة فتدخل في أصناف المحرمات. وذلك عندما يقصد بها مثلاً السمعة والمباهاة، أو عندما تكون سبيلاً للذهول والانصراف عن شيء من الواجبات والعبادات. ورب بيت يقوم في مظاهره الجزئية على مجموعة من التصرفات والشؤون المباحة، ولكن هذه الجزئيات تدخل ضمن دائرة عامة من اللهو والإعراض عن حقوق الله تعالى والانسلاخ عن جوهر العبودية له، فينقلب ذلك كله إلى سلوك محرم ذي وبال عظيم.

إن الابتلاء بالخير، بالمعنى الذي أوضحناه لا يسمى ابتلاء عند من لم يفهم معنى هذا الوجود على حقيقته، ولم يتعرف على هوية نفسه وقصة رحلته الخطيرة في هذا الكون.

بل ان الطبيعي بالنسبة أليه أن يمارس مختلف اسباب هذه الدنيا التي من حوله، كدابة تفتحت عيناها على معلق أمامها، فانحطت برأسها فيه، دون أن تدرك شيئاً آخر من حولها أو مما قد يراد بها.

إلا أن جهل هذا الإنسان، لا يغير شيئاً من الحقيقة التي يعلمها ويوقن بها الآخرون!.. فإن الماء الذي يشربه أحد رجلين، وهو لا يدري أن فيه سماً قاتلاً، لا يغير من طبيعة الماء والسم الذي فيه، ولا يجعل زميله الآخر جاهلاً مشككاً، إذا ما أتيح له أن يطلع على السم الذي قد مزج بالماء فحذر منه. وبناء على هذا الاختلاف في العلم، فإن اقتراب هذا الماء، في كأس رقراقة مغرية، من فم هذا الشخص الثاني . على حالة من الظمأ الشديد . يعد ابتلاء يتطلب منه قدراً من الصبر والثبات، على حين لا يعتبر ذلك بالنسبة لزميله الأول إلا نعمة عظمى تبعث على الفرح والسرور. ولكنه نعمة في وهمه هو، فلا يقام عليه أي أساس من المنطق الموضوعي الناظر إلى حقيقة الأمر.

وهكذا، فالرجل الذي يرى أن الدنيا هي الفرصة الوحيدة للحياة، فلا حياة أخرى من ورائها، لا يفهم لضرورة الصبر على بلائها أي معنى، ولا يرى للشكر الذي ذكرناه على نعمها أي دافع. فهو لا يحمل نفسه من أجل ذلك صبراً على ضر، ولا شكراً على خير.

وهذا الصنف من الناس، هو الذي تراه دائماً يجأر بالشكوى من المصائب، ويظل ينشد العدالة الإلهية ويبحث عن مصيرها. إذ هو لأدرك للسعادة أو الشقاء معنى إلا ضمن حدود هذه الحياة الدنيا. ومن ثم فهو لا يقتنع منك بشيء مما قد تحدثه عن فلسفة الصبر أو الشكر.

ولهم الحق كله في أن لا يفهموا ما يفهمه المؤمن بالله من معنى الصبر والشكر ودوافعهما. ولنشرح سبب ذلك بالنسبة لكل منهما.

أولاً . لهم الحق ان لا يفهموا شيئاً عن الصبر:

فإن الصبر في حقيقته ليس أكثر من تعلق الأمل بخير متوقع .. فإذا لم يكن ثمة أمل، فلا صبر، بل لا معنى عندئذ للصبر. وليس معنى تحمل الضر عندئذ إلا الخضوع القسري لعذاب لا ثمرة له ولا مناص منه. وجدير بمن كانت هذه حاله أن يختنق أو ينتحر.

إن الذي كتب عليه السير ضمن مغارة ضيقة مظلمة، وطال عليه السير فيها، دون أن يتوقع لها نهاية تنفذ به إلى متنفس سعيد يستنشق منه الهواء والضياء، لا يعتبر سيره أو بقاؤه فيها من الصبر في شيء، وإنما هو سير وئيد وسريع إلى الانفجار أو الاختناق.

أما ذاك الذي يسير إلى جانبه وسط تلك الظلمة ذاتها وهو موقن أنه الطريق الطبيعي الوحيد إلى جنة غناء وارفة الظلال، فإنه لا يحس من كل ما حوله إلا بالأمل الذي يراوده، ولا يرى من الظلام المطبق عليه إلا صورة الضياء الذي ينتظره.

وهذا هو الصبر الذي أمر الله عز وجل عباده به في كثير من آيات كتابه.

ليس صبراً لا نهاية له على عذاب دائم خانق، وإنما هو صبر في طريق لا بد منها، إلى الغاية التي لا شك في وجودها ولا مرية في انتهاء الإنسان اليها. وبمقدار ما أمر الخالق عباده بالصبر أكد لهم حقيقة الأمل، وجزم لهم أن مضمونه حقيقة واقعة لا ريب فيها.

وعلى الذي يظل يشكو من ظلام السرداب الذي يسير فيه، أن يشكو من جحوده بالنهاية التي تنتظره وراء الظلام.

على الذي يريد أن يحاسب الله عز وجل على عدالته ونظام سيرها في هذه الحياة الدنيا، أن يحاسب نفسه أولاً على إنكاره ليوم آت لا ريب فيه يتم فيه الحساب بعد طول إمهال وتتجلى فيه العدالة الالهية بأتم مظاهرها وأدق أحكامها.

ثانياً . ولهم الحق أن لا يفهموا شيئاً عن الشكر:

لأن الانحباس في طريق الشكر وتبعاته، لا معنى له أيضاً عند من لم يؤمن بعد، بوجود من ينبغي عليه شكره، أو هو مؤمن به ولكنه لا يستشعر الخوف من عقابه إن هو استغرق في النعم التي سيقت اليه ولم يستعملها ضمن حدود معينة وبحساب معلوم.

ويركب مثل هذا الإنسان رأسه مستغرقاً في لجة النعيم جارياً وراء المتعة حيثما لاحت، ويتوهم أن ذلك هو السعادة.

إلا أن حاله هذه لا تعتبر مقياساً حقيقياً للسعادة . كما أوضحنا . وإنما سعادته وهم قائم في خياله وخيال من قد ضل ضلاله وذهل عن العاقبة مثل ذهوله.

إن كل عاقل يعلم أن الذي يتقلب في نعيم محظور متوعد عليه من قبل من لا كذب أو إخلاف في وعيده، لا تغبط حاله ولا يعتبر سعيداً إلا في وهم نفسه بسبب الجهل بمصيره.

أما من آمن بالله، وصدق بوعيده وعذابه، فإنه يساق، بمزيج من دافع إيمانه بالله ومحبته له أو خوفه منه . إلى ضبط نفسه ضمن حدود الشكر، ثم هو يجد نفسه مسوقاً أيضاً إلى الصبر على هذا الانضباط، أملاً بما استيقنته نفسه من المثوبة والأجر على ذلك. وهذا هو الابتلاء.

***

لاَ عِبرة بعَرَض الدُّنيَا

وعرض الدنيا يطلق على كل ما فيها من مظاهر الغنى والترف والزخرف والفنون والمفاخر الدنيوية المختلفة.

إن هذه المظاهر لاعبة بها!.. فقد يمنحها الله تعال عباده الصالحين وأعداءه الجاحدين. وإنما العبرة بتلك الحالة التي إذا ارتقى إليها العبد، جعل من كل ما تطوله يداه من الدنيا وأسبابها سلماً لبلوغ مرضاة الله عز وجل.

والعبد الذي وصل إلى هذه الحال سعيد وإن رأيته يعاني . فيما تظن . ألواناً من المصائب والمآسي، وهو قوي وإن رأيته . في وهمك . ضعيفاً لا يملك ما يخيف منه أحداً أو يدفع عنه عدواً، وهو غني وإن تبدى لك في ظاهر حاله أنه فقير مهين.

بيد مثل هؤلاء الناس، قوض الله ملك كسرى وهرقل!..

وتحت حمى هؤلاء الناس أقام الله دولة لم يسمع التاريخ مثلها في القوة ولا في الاتساع.

ومن هيبة هؤلاء الناس كانت ترتعد أفئدة أولي البأس والقوة في العالم.

ومع ذلك كله، فقد كان أمير هؤلاء الناس يفضل أن لا يستبدل بمرقعته البالية غيرها، وكان أحد الجنود في جيشه يأبى أن يقابل قائد الجيش الفارسي إلا بثوبه الممزق فوق فرس عارية!..[6].

وعندما جاء من يكلم أمير المؤمنين راجياً أن يحسن من مظهره الشكلي أمام قادة الروم، اصطكت أسنانه منه غضباً، وقال له:

(أوه لو غيرك قالها يا أبا عبيد، إذا لجعلته نكالاً للمسلمين. إن الله اعزنا بالإسلام فمهما طلبنا العز بغير ما أعزنا لله به أذلنا الله).

وظلت مكة التي انطلق منه الفتح الإسلامي إلى القصور المنيفة في بابل، وادياً أجرد غير ذي زرع وفير ولا بناء جميل.

وظل النبي الذي تفرعت من شرعته حضارة باسقة امتدت فوق رقعة العالم المعروف إ ذ امياً لا يقرا ولا يكتب وسط أمة أمية لا يعلم أكثرها قراءة ولا كتابة.

وأمتد الأمر، على ذلك، حيناً من الزمن. تساق اليهم الدنيا، فيخضعونه لحكم الله ومنهج دينه وسلطان شرعته، دون أن تتعلق منهم بنفس أو تسيطر منهم على فؤاد.

حتى إذا خلف من بعدهم خلف تسلل حب الدنيا إلى قلوبهم، وانطلقوا يتنافسون فيها، ويتباهون بزخرفها، ويضعونها من حياتهم في موضع القيادة والتوجيه . تقلصت القوة من حياتهم، واختفت عنهم الرهبة التي كانت تخيف الناس منهم، وتفرق أمرهم بعد تآلف واتحاد!..

طوي ملك الاندلس وطرد عنها من كانوا يحكمونها ويقودون أمرها، دون أن تغني عنهم قصورهم الباسقة، ولا زخارفها الرائعة، ولا أموالهم الوفيرة، ولا حضارتهم الرفيعة.

---

[6] هو ربعي بن عامر، عندما قابل رست قائد الجيش الفارسي في معركة القادسية.

وتفرق أمر الدولة العباسية، واستحال إلى دويلات متخاصمة يأكل بعضها بعضاً، دون أن يغني عنها الملك الواسع العظيم ولا المال الفائض الوفير ولا كثرة الجند ولا تقدم العلوم والفنون!.

فما معنى ذلك كله؟

معناه أن الإسلام (بجوهره المجرد) هو ينبوع القوة، وهو أساس الغنى، وهو مصدر الحضارة والعلم.

ومعناه أن لاعبة بالقوة أو الغنى أو الحضارة إذ يتجرد ذلك كله عن أساس الدين السليم. فقد تحطم ذلك كله ذات يوم تحت سنابك خيول المسلمين، لا لشيء إلا لأنها خيول المسلمين.

وإذا كان هذا الكلام جلياً واضحاً فليس لأحد أن يستشكل ويقول:

فيم تتقلب اليوم أمم الكفر والبغي في نعيم المال والوفير، والقوة العاتية، والعلوم الخارقة، على حين لا يملك المسلمون في مقابل ذلك إلا الفقر الشديد، والضعف العجيب، والجهل بكل شيء.

نقول: ما ينبغي أن يورد هذا السؤال، للسببين التاليين:

السبب الأول: أن نعيم الدنيا بأصنافه ليس مقياساً ـ كما قلنا ـ في شريعة الله وحكمه، لسعادة الأمم ولا لرضى الله عنها، ولا لمدى قوتها وسلطانها في الأرض، وإن كانت هذه الأمم اليوم ـ لسبب آخر ـ في منتهى القوة والبأس.

لقد قال الله تعالى لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام: (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) آل عمران: ١٩٧.

وقال: (لا يحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين) آل عمران : ١٧٨.

وقال : (أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين، نسارع لهم في الخيرات. بل لا يشعرون) المؤمنون: ٥٥و٥٦.

وقال: (زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة، والله يرزق من يشاء بغير حساب) البقرة:٢١٢.

وقال عن الكافرين: (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأملي لهم إن كيدي متين) الأعراف: ١٨٢.

وقال منبهاً إلى حقارة الدنيا وهوانها على الله عز وجل: (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون) الزخرف:٣٣.

ومر رسول الله (ص) في السوق بجدي ميت، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم؟ فقالوا ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ فقال: والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم[٧][7].

ولو كان نعيم الدنيا هو السبيل إلى قوة الدولة ووحدة الأمة وحمايتها من أطماع المعتدين، لنال المسلمون بقيادة نبيهم وخلفائهم الراشدين أعظم قسط من هذا النعيم، ولعاشوا يتقلبون في رفاهية العيش وسعة الرزق.

ولكنهم كانوا على العكس من ذلك تماماً. لقد كانت أمم الفرس والروم على ما تعلم من النعيم والبذخ، وكان يمر على رسول الله (ص) ثلاثة أهله لا يوقد في بيته نار لطعام. ولقد توفي عليه الصلاة والسلام وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين[٨][8].

ولقد كانت تتهاوى حصون الأعداء أمام فتوحات المسلمين وهم في شظف من العيش وشدة من الفقر، وأعداؤهم يخوضون في ألوان الرفاهية والنعيم.

روى الإمام مسلم بسنده عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: والله إني لأول رجل من العرب رمى بسهم في سبيل الله ولقد كنا نغزو مع رسول الله (ص) ، ما لنا من طعام نأكله إلا ورق الحلبة وهذا السمر نوع من الشجر ـ حتى إن احدنا ليضع كما تضع الشاة!..

---

[٧][7] رواه مسلم.

[٨][8] رواه الشيخان.

وروى مسلم أيضاً عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه، أنه قال في خطبة له: لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله (ص)، ما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى تقرحت أشداقنا، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك، فاتزرت بنصفها، واتزر سعد بنصفها. فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار. وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً، وإنها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت، حتى يكون آخر عاقبتها ملكاً. فيختبرون وتجربون الأمراء بعدنا.

ويقول رسول الله (ص): (أبشروا وأملوا بما يسركم. فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم)[٩][9].

وإذن، فلم يكن فقر المسلمين وتخلفهم وسوء حالتهم الدنيوية في يوم من الأيام، مانعاً لهم عن بلوغ أقصى درجات القوة والنصر، وبالعكس أيضاً لم تكن وفرة الغنى في أيديهم، وتهافت أسباب الراحة والمدنية والنعيم عليهم سبباً من اسباب ذلك التوفيق بل كان المال بما يستتبعه من الرخاء . ولا يزال . مصدر ابتلاء وفتنة، صمد له المسلمون حيناً من الزمن، ثم ما لبثوا أن انزلقت أقدامهم ووقعوا صرعى في شراكه الخطير، وحاق بهم ما حذر منه رسول الله(ص).

وهذا الرخاء نفسه بمظاهره المختلفة لم يستطع أن يكون حصناً يقي الفرس أو الروم وأمثالهما من سطوة المسلمين وبأسهم. بل أنتثر ذلك كله تحت أقدام المسلمين وتحققت (معجزة) الفتح الإسلامي، على حد تعبير المؤرخين الغربيين[١٠][10].

وهكذا فقد اتضح لك أن مظاهر الرخاء الدنيوي . بكل ما تتيح له هذه الكلمة من مدنية وغنى وفنون وحتى علوم دنيوية مختلفة . أمر لا شأن له بما وعد الله المسلمين به من توفيق وعزة ونصر، ولا علاقة له بما لهم من مكانة عنده أو محبة من الله لهم.

السبب الثاني: أن المسلمين اليوم ليسوا هم المسلمين الذين كانوا بالأمس، عندما آتاهم الله (معجزة) الفتح، وليسوا هم الذين وعدهم الله تعالى بالنصر والتأييد في مثل قوله عز وجل:(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم..) النور:٥٥. وإنما هم اليوم نموذج آخر عجيب!.. يصبغون أنفسهم من الإسلام ببعض ألفاظه وشعاراته ضمن شروط معينة، ثم لا يرضون لأنفسهم شيئاً من منهجه وشرعته وأحكامه، يتبرمون بكل قيمه ونظمه وحدوده، لمجرد أنه قديم لم يولد البارحة في جملة هذا الذي ولدته حضارة الغرب، ويتعشقون بدلاً عنه جميع ما يجد بين هؤلاء الأعداء، الذين يتساءل القارئ عن سبب تفوقهم، لمجرد أنه شيء حديث لمسته يد الغرب المباركة!.. قد شاعت فيهم صنوف المنكرات حتى غدت هي المعروف الحبيب اليهم واختفى من بينهم المعروف حتى أصبح هو المنظر المستهجن في نظرهم!..

فأي حق لهؤلاء عند الله تعالى أن يطالبوه بالنصر، وأن يمنوا عليه بإسلام لم يتمسكوا منه إلا بالقشور أو الدعاوي الكاذبة، بالاضافة إلى ما قد يكيدون لمبادئه وأحكامه القدسية؟!..

ولكنك قد تسأل: فهذا سبب تخلي الله عز وجل عن المسلمين، ولكن ما هو سبب تأييد الله تعالى لأعدائهم في كل المجالات، وهم شر من هؤلاء المسلمين على كل حال؟

والجواب: أن سنة الله تعالى اقتضت أن تظل هذه الدنيا تسير بأهلها في تطوها العمراني والمعاشي، حتى يأتي وعد الله تعلى وتحين الساعة المحددة لزوالها وانمحاقها.

وإنما شأن المؤمنين بالله القائمين على حدوده وأحكامه مع بقية الأمم الجاحدة بالله الباغية على هذه الحدود والأحكام، بالنسبة لعمارة الكون وقيادته، مثل كفتي ميزان. إن رجحت إحداهما لابد أن تطيش الأخرى.

---

[٩][9] متفق عليه.

[١٠][10] يطلق الغربيون على الفتح الإسلامي أسم(المعجزة) لأنهم لا يفهمون هذه المقاييس والقوانين الألهية التي تم النصر بموجبها . للمسلمين. فظلت المسالة في أذهانهم مستعصية على التعليل والتحليل فلذلك سموها: معجزة.

أما نحن، فنعلم أن المسألة مرتبطة بقانون ونظام سائدين مع اختلاف العصور والأمكنة ولكن دستورها الأول إنما هو الايمان بالله عز وجل والتصديق بكتابه وسنة رسوله.

فإذا كان المؤمنون بالله صادقين في أيمانهم به، أمناء على منهاجه وشرعه في الحياة، جعل الله تعالى قيادة الحياة وعمارتها اليهم، وأخرج لهم اسباب العزة والتأييد من حيث لا يحتسبون. وغدا الآخرون من ورائهم وتحت سلطانهم.

وإذا انقلب المؤمنون، فضيعوا شرعة الله وحكمه، ولم تخلص أفئدتهم لدعوى ألسنتهم، وفاض فيهم المنكر حتى لم يبق فيهم من يقف في وجهه، وغاب من بينهم المعروف حتى عاد غريباً يتقزز منه . جعل الله تعالى قيادة الحياة وعمارتها إلى الأمم الأخرى، وسلطها عليهم بالقهر والتمزيق والإذلال.

وهكذا، فإن الدنيا لا يمكن أن تقف عن حركتها وتطورها من أجل عيون الذين شاءوا أن ينكصوا على أعقابهم ويتخلوا عن مسؤولياتهم، بل تظل مستمرة في نموها وحركتها المعاشية كما أقتضت سنة الله. ولكن قيادتها تتحول من أيديهم إلى أيدي الآخرين.

تأمل هذه السنة الإلهية كيف تبدو جلية في قوله تعالى: (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) الأنعام:١٢٩.

وفي قوله عز وجل، وهو شرح هذه السنة نفسها لبني إسرائيل، ويحذرهم من الوقوع في مغبتها: (وقضينا الى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً) الى أن قال لهم: (عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً) الإسراء: ٤و٥و٦.

وتأمل هذا المبدأ الإلهي نفسه في قوله عليه الصلاة والسلام(إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم) والذل . كما تعلم . لا يكون إلا بتسلط من يمارس القهر والإذلال.

وتعال فانظر على عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص عند مضيه الى معركة القادسية، وهو يشرح له هذا الأمر الخطير، ويهيب به أن يبعد جيشه عن الانحرافات والمنزلقات التي تجعله عرضة للوقوع تحت قبضة الظالمين. لقد كان فيما قال له:

(يا سعد أبن أم سعد: لا يغرنك أن يقال عنك خال رسول الله. فإن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته.. آمرك ومن معك أن تكونا أشد احتراساً منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله. ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، وعدتنا ليست كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإن لا ننصر عليهم بفضلنا، لم نغلبهم بقوتنا.. ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا، فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمعاصي الله كفار المجوس، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً...)[١١][11]ولقد عاش مؤسس الدولة العثمانية الغازي عثمان بن أرطغرل في خضم تجارب هذه الحقيقة، ورأى بعينه كيف تتحكم هذه السنة الالهية في مجرى التاريخ وصراع الأمم مع بعضها، حتى إذا حانت وفاته أقبل إلى أبنه يعتصر له من تجاربه مع هذه الحقيقة وصية رائعة نادرة جاء فيها قوله:

(خذ مني هذه العبرة، لقد حضرت إلى هذه البلاد وأنا كنملة في الضعف، فأعطاني الله هذه النعم الجليلة!.. فالزم مسلكي، واحذ حذوي، واعمل على تعزيز هذا الدين المحمدي وتوقير أهله فذلك هو واجب الملوك في الأرض)[١٢][12]ومع ذلك، فينبغي أن تعلم بأن هذا الواقع

---

[١١][11] ألا ليت الذين يتقنون الهتاف والتغني باسم القادسية اليوم، يتقنون فهم هذه (الاستراتيجية) التي كانت سر انتصار المسلمين فيها. وليت أنهم يصدقون مع أنفسهم مرة واحدة فقطن فلا يتغنون بأمجاد القادسية، ثم يحاربون القيم والمبادئ التي كانت الدعامة الأولى والأخيرة لخلود أسم القادسية في تاريخ العرب والمسلمين.

[١٢][12] دعني اثبت لك نس هذه الوصية كما وردت في كتاب (أبو الفتح السلطاني محمد الثاني) تأليف علي همت وتعريب محمد احسان عبد العزيز. فإنها ستنبهك إلى كثير من العبر وتفسر لك معاني كثير من الأحداث وتزيدك إيماناً بعدالة العلي الأعلى القائل في محكم كتابه(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وهذا هو نصها:

(قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء ولا تفتر في المواظبة عليه، لا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش، وجانب البدع المضرة وباعد الذين يحرضونك عليها وعلى الظلم، وسع رقعة البلاد بالجهاد، واحرس أموال بيت المال من أن تبدد، وأعمل على إنماء ثروة الدولة. وأعطف على رجال الدولة الذين وقفوا حياتهم على خدمتها بصدق وإخلاص، وابسط حمايتك على أولادهم وذراريهم واضمن

لا يسمى انتصاراً أو تفوقاً للكافرين على المسلمين، وإنما هو في الحقيقة تسليط أو (تولية) على حد تعبير البيان الالهي. وفرق كبير بين الانتصار والتسليط.

إن الأمم التي تعادي شرعة الله وحكمه، لا يمكن أن يكرمها الله تعالى بنصر أو بفوز حقيقي في أي عهد من التاريخ أو في أي بقعة من العالم.

قد يطلعها الله تعالى على بعض خفايا الكون وعلومه، ولكنها بمقدار ذلك تغوص في مزيد من الجهالة بأجلى الحقائق المتعلقة بمصيرها. وما أصدق بيان الفاطر الحكيم في ذلك إذ يقول عنهم: (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون) الروم:٧.

وقد يملكها الله تعالى إلى حين مقاليد الحم ومقدرات الكون ويخضع لها الكثير من نواميس الطبيعة. ولكن ذلك لا يدوم لها إلا ريثما تسكر به عن ذاتها وتغفل عن الهاوية التي تسير على حافتها. وما أروع بيان رب السموات والأرض في ذلك إذ يقول: (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك، فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون، فلولا غذ جاءهم بأسنا تضرعوا، ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون. فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) الأنعام: ٤٢و٤٣.

أجل .. إن غاية في الجهل أن تسمي شيئاً من هذه المظاهر نصراً، أو فوزاً، أو تفوقاً حقيقياً.ولئن لاح أن الأمر كذلك، فإن الجهل بحقائق الأشياء لا يمكن أن يغيرها. فالذي يخترق إلى حتفه جنة فيحاء وارفة الطلال، سائر إلى حتفه لا محالة، سواء أكان منصرفاً بشعوره إلى فوح الزهر والرياحين، أو متحسساً مصيره وسوء عقباه.

وليس هذا الكلام تسلية أو أنشودة يراد بها ارضاء المسلمين بواقعهم، عن طريق تهوين شأن أعدائهم. بل هو على العكس من ذلك: تحليل للواقع الحقيقي الذي يعيش فيه المسلمون، وعرض دقيق للمشكلة وحلولها التي لا بديل عنها. وسواء اعتبرنا سيطرة العالم الغربي عليهم سمواً وانتصاراً، أم اعتبرناه إمهالاً من الله واستدراجاً، فإن مما لاشك فيه أنهم متسلطون عليهم بالقهر والاذلال، وأن المسلمين يعيشون إذلاء تحت قبضتهم، أو داخل مناطق نفوذهم، أو ضمن حكم التبعية المطلقة لشتى مناهجهم وسلوكهم. وليس ذلك قضاء نازلاً بهم بدون تسبب منهم ولا اختيار، بل هو من ثمرات كسبهم وما جنته أيديهم. وما كان الله ليظلم أحداً من الناس ولكن الناس أنفسهم يظلمون. وسبيل الانفلات من هذا الذل واضح معلوم لمنة أراد . حقاً . الانفلات منه والسير في طريق العز والنصر. وأي انصراف إلى اصطناع سبل أخرى للتحرر من هذا الذل ليس إلا تعللاً بأمنيات خادعة لا تكاد تشبع أخيلة الصغار.

***

للمعوزين قوتهم لا تمد يدك إلى مال أحد من رعيتك وابذل عطفك وإكرامك للمستحقين خصوصاً. إعمل على حسن استخدام طوائف الجند وتوفير الراحة لهم.

وبما أن العلماء والأدباء بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة، فاعطف عليهم وشجعهم. وإذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه واغره بالمال والاكرام حتى يقيم في بلدك.

حذار حذار، لا يغرنك المال والجند!.. ولا تبعد أهل الشريعة عن بابك، ولا تمل إلى عمل يخالف أحكام الشريعة فإن الدين غايتنا والهداية منهجنا خذ مني هذه العبرة: حضرت هذه البلاد كنملة ضعيفة، فأعطاني الله تعالى هذه النعم الجليلة.

فالزم مسلكي، واحذ حذوي، واعمل على تعزيز هذا الدين المحمدي وتوقير أهله مع سائر رعيتك المطيعة. ولا تصرف أموال الدولة أكثر من اللزوم، ولا تضن على أخلافك بنصائحك، وارحم رعيتك من الظلم.

وإذا مت، فادفني تحت تلك القبة الفضية في (بروسه) وإذا كلفك أحد بشيء لم يأمر به الله فلا تقبله. واسأل من يعلم إذا كنت لا تعلم علم الدين).

على أي أسَاس يتنوَّع الابتِلاَء؟

انتهينا فيما أوضحناه آنفاً، إلى أن معظم مظاهر هذه الحياة الدنيا ، يدخل فيما يسمى بالفتنة والابتلاء على ما تتنوع اليه من الخير والشر، بما لكل ذلك من فروع وأقسام. وقد نص الله تعالى عل ذلك في بيان قاطع بقوله: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون). ولكن على أي أساس تتفرق هذه الفتن بين شتى فئات الناس وأفرادهم حتى يكون نصيب فلان منها المال والجاه، ونصيب الآخر الفقر والخمول، نصيب الثالث المرض العضال؟.

ان التسليم بأن كل ذلك يدخل تحت قاسم مشترك هو الفتنة والابتلاء، لا يعني انهما سواء في آثارهما على النفس، بل الأمر يختلف في ذلك اختلافاً بيناً، ولذلك كان لابد (للاطمئنان إلى عدالة توزيع هذه الابتلاءات بين الناس) من معرفة القانون الذي تتوزع عليهم بموجبه.

ونقول في الجواب: أما تنوع الفتنة بحد ذاتها، فأمر ضروري لتحقق جوهر ما يسمى فتنة وابتلاء. فتنة الفقر لا وجود لها إلا بجانب وجود الغنى، وفتنة المال وسياسة إنفاقه، لا تتم إلا مع وجود الفقر والحاجة إلى جانبه، ولولا المرض وآلامه لما تجلت نعمة الصحة والعافية ولولا ما يعلمه الناس من لذة العافية وسلامة الأجسام لما اشتد خوفهم على أنفسهم من الاسقام والآلام.

وهكذا، فإن مظاهر هذه الحياة الدنيا، لا يكتسب كل منها مقومات وجوده إلا بالنسبة إلى غيره. ولو أختفت منها ألوانها المتعددة وتوحدت مظاهرها المتعارضة، لما فقدت منها سمة الابتلاء والإفتتان فقط، بل لفقد منها ايضاً سر التعلق بها والركون اليها، ولانقلبت إلى عنصر سآمة وضجر.

وإذا كانت الحياة الدنيا . في حكم الله وإرادته . دار إفتتان وابتلاء، فقد أقامها، الفاطر الحكيم جل جلاله، على هذا التنوع والتمازج بين شتى خصائصها ومستلزماتها، وشد وجود كل منها بوجود الآخر. فكانت بذلك تربة صالحة لممارسة الوظيفة التي ألزم عباده بها، ألا وهي ممارسة العبودية له في شتى شؤونهم وتصرفاتهم الدنيوية.

وأما كيفية التوزيع، أي ما قد يصيب كلا منهم من أنواع هذه المحن والابتلاءات، مما قد لا يصيب الآخر، فتقوم على حكمة باهرة تتصل بالمعنى التربوي الذي يأخذ به الله تعالى عباده. فإن بلاء الفقر قد يكون العلاج المفيد بالنسبة لحال بعض الناس مع الله تعالى، ويكون الداء الوبيل بالنسبة لبعض آخرين، وقد يكون استمرار الصحة عنصر بغي وشر بالنسبة لجماعات من الناس، على حين يكون هذا الاستمرار نفسه وسيلة خير واستقامة بالنظر إلى آخرين.

وعندما نقول: الخير والفائدة والسعادة، لا نقصد بشيء من ذلك ما يتفق مع أهواء الناس وتصوراتهم لمعنى الخير والفائدة والسعادة، وإنما نقصد به الخير الذي علم الله تعالى أنه خير، بقطع النظر عن موافقته لأهواء الناس أو عدم موافقته إياها. والله تعالى يقول: (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) البقرة: ٢١٦.

ويقول رسول الله(ص): (إن الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه، كما يحمي أحدكم مريضه)[١٣][13].

ومعنى هذا الكلام، أنه لا عبرة برضى العبد أو عدم رضاه، فإن المربي يعلم من حال من يربيه ما لا يعلمه هو من نفسه، ولولا ذلك لما سمي المربي مربياً، ومن أعظم اسماء الله تعالى وصفاته: الرب، أي المربي.

إن الطفل، إذا يربو صغيراً في حجر أمه وأبيه، يرغم على كثير مما يكره من التصرفات والأمال ويحرم من كثير مما تتوق اليه نفسه من اللذائذ والطيبات.

كثير مما تتوق اليه نفسه من اللذائذ والطيبات. وربما لم تستطع ان تدخل إلى نفسه بأن ذلك كله من أجل خيره ومصلحته وعاقبة أمره. فإن حدوده الفكرية لا تتسع لهضم ذلك وفهمه. ولكنه لا يكاد يتجاوز مرحلة الصبا، ويصحو عقله إلى معاني الحياة التي تحيط به فيدرك طبيعتها وخصائصها، حتى ينقلب شاكراً لمن كان بالأمس يتضايق منه ويتبرم به.

وشأن الإنسان في هذه الحياة مع ربه عز وجل أقل بكثير من شأن الطفل مع و ليه ومربيه.

---

[١٣][13]رواه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه.

وإذا أدركت أن الأمر كذلك، فلا تتهم ربك فيما يسوس به عباده من ألوان الفتن والابتلاء. وسواء ألح لك وجه الحكمة في بعض منها أو خفي عنك، فاعلم أن الله تعالى حكيم: لا يضع الأمر الذي يختاره إلا في المكان الذي لا يصلح فيه غيره[14]، مرب: لا يأخذ عبده بالشدة إلا لينبهه من غفلة مهلكة أو يرده عن انحراف وقع فيه.

وكم رأينا أناساً عاشوا صدر حياتهم في غفلة عن الله، أسكرتهم النعمة، وأبطرتهم العافية، وأطغاهم المال. فابتلاهم الله تعالى بأمراض في جسومهم أو إقلال في مالهم، فنبههم البلاء الذي هزهم وأعادهم شيئاً فشيئاً إلى حظيرة العبودية للفاطر الحكيم جل جلاله، ثم أبدلهم الله عز وجل، بالخير الذي فاتهم نعيم الأنس بذاته ولذة الانابة إلى هديه، تنظر إلى أحدهم وقد غمره شعور السعادة والرضى ولذة الانابة إلى الله عز وجل.

وكم رأينا من طغاة قد تمطوا بأنفسهم إلى سدة الربوبية، إذ أوتوا من القوة وأسبابها ما أنساهم أنهم عبيد أذلاء الله عز وجل، فلما جردوا من قوتهم واستنزلوا من اعالي سلطانهم، وضمتهم . إلى بضعة أيام . جدران سجون، أو أرض غربة، تذكروا الحقيقة التي طالما ظلوا غافلين عنها، وارتدت أبصارهم إلى أنفسهم فعرفوها بعد طول جهالة، ثم اصطلحوا مع الله عز وجل على صعيد العبودية الراضية والايمان المطلق بربوبيته وحكمه.

وكم من رج لعاش حياته، لم يذق طعم الضراعة على باب الرحمن، ولم تنبسط يداه اليه بسؤال صاعد منا لاعماق، ولم يستشعر شيئاً من نعيم الذل لقيوم السماوات والأرض، إذ كانت النعمة تأتيه رغداً من كل مكان، فلم يكن ثمة ما يقوده إلى ذل المسألة وضراعة العبودية. فلما ابتلاه الله تعالى بالمصيبة التي لم تنفعه فيها محبة صديق ولا إخلاص طبيب، ولم تنقذه منها أموال الدنيا ولا زعامات الزعماء ولا بطش الأقوياء . تذكر مولاه الذي لا مولى سواه، وضل من حوله من يدعوه إلى إياه، فأسرع إلى باب الله يتمرغ في أعتابه، يناديه من أعماق قلب كسير: ها لقد عدت اليك يارب بعد طول شرود وابتعاد، لبست جلباب عبوديتي لك وقبعت في ذل انكساري اليك، وصحوت إلى عظيم فضلك وبالغ منتك ولطفك.

فلما أضاء الايمان سراج قلبه المظلم، وبدأ يخفق بلذة القرب وحلاوة النجوى، نسي سؤاله الذي جاء من أجله، وحط برحله هناك، لا يبتغي عن قربه إلى الله بديلاً، ولا يبيع حلاوة شهوده القلبي بنعيم الدنيا كلها.

ولست أنسى . ما عشت . إنساناً عظيماً شطر الله حياته إلى قسمين، كان في الشطر الأول منهما ذا نعمة وافرة وعافية تامة، وكان في شطرها الثاني يعاني من مصيبة مرض عضال في جسمه علق به ثم لم يفلته، وقد ألصقه هذا المرض بأعتاب الله عز وجل وأحيا قلبه بالمزيد من لذة مراقبته وحبه وشهوده، فكان يقول لمن حوله: أهدكم أنني لا أريد العافية من هذا المرض إذا كانت العافية ستفقدني حلاوة قربي إلى الله. وكن أشعر أنه يقولها من أعماق قلبه، ويودعها جميع احساسات روحه.

وإنما ينال العبد لذة هذا القرب من مولاه عز وجل بتوبة الله عليه ومحبته له، وإنما يتوب الله عليه بفضل انكساره والانضواء في ذل العبودية له. وقد لا يتم هذا الانكسار إلا عندما يطوف بالإنسان لون من ألوان الحرمان أو يتهدده شبح مصيبة في ماله أو جسده أو أهله.

ولو شاء الله لخلق شعور العبودية والانكسار في قلب كل إنسان خلقاً، دون وساطة كسب ولا سعي منه، ولكنك عمت مما ذكرناه آنفاً أن مشيئة الله تعلقت بوضع الإنسان في موضع التكليف لا يكون إلا بالكسب والسعي في طريق من الكلفة والمشقة والعسر.

***

ولعلك تستعرض أمر الناس، فترى من أحوالهم ما قد يجعلك تحسب أن لهذه السنة الإلهية شذوذاً فتشك في صدق ما قلناه، كأن تجد عصاة مستغرقين في عصيانهم، ثم لا يدركهم مع ذلك صحو من هذه الفتن والألام، أو تجد أناساً في غاية التقوى والاستقامة، والمصائب تظل لاحقة بهم، أو تجد كفرة جاحدين قد مرقوا من دائرة الايمان كلها، وهم في بحبوحة من الدنيا ورغد من العيش.

---

[14] نقول هذا مع العلم بأن الله هو خالق الأشياء كلها، وخالق صفات الصلاح أو الفساد فيها. وانما تتبع حكمته خلقه وتنظيمه.

فأعلم ان هذه السنة الالهية ليس فيها أي تخلف أو شذوذ، ولكنك لا تستطيع أن تلمس تطبيقها على صعيد جزئيات الوقائع والأفراد، فأنت لا تعلم من حال الناس وحقيقة سلوكهم إلا ما يبدو لك من ظاهر أمرهم، أما خليات شؤونهم فمجهولة وغائبة عنك، لا يعلمها إلا الله.

فمن أين تعلم أن هذا الذي تراه عاصياً مستحقاً لبلاء ينبهه من العصيان، ليس بينه وبين الله تعالى حال من الصلاح يكفر به عنه سوء تلك الأوزار؟. ومن أين تعلم أن غيره ممن بحسبه أقوم حالاً منه، كذلك في واقع الأمر عند الله؟.. ورب خاطر يخطر بسوء أدب في حق الله تعالى وعظيم صفاته، يكون عند الله عز وجل أعظم وأطم .كما يقول الإمام الغزالي . من شرب الخمر وارتكاب الزنى واقتراف سائر الموبقات. وذلك الخاطر مما لا تراه ولا تحس به، وهذه المعاصي ظاهرة مكشوفة للعيان.

يقول الشيخ ابن عطاء الله السكندري، في حكمه العظيمة:(معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً)[15]١٥فما أدراك بالمعصية التي أورثت صاحبها الانكسار والذل، والطاعة التي أورثت صاحبها الكبرياء والعز؟!.

على ان المعصية إذا استفحل أمرها وازداد العاصي استهانة بها وعكوفاً عليها، حتى اشتد غضب الله عليه بسببها(والله أعلم عقوبة آجلة يوم القيامة، لا يكفرها جميع مصائب الدنيا. وعندئذ يزداد نعيم الدنيا إقبالاً عليه والتفافاً به،ويزداد عكوفاً عليها واستغراقاً في بحارها. فلا يصحو منها ساعة إلى نفسه ومصيره.

وذلك هو الاستدراج الذي نص عليه البيان الإلهي في قوله عز وجل:(سنستدرجهم من حيث لا يعلمون،وأملي لهم إن كيدي متين) وفي قوله: (ذرني ومن خلقت وحيداً، وجعلت له مالاً ممدوداً،وبنين شهوداً، ومهدت له تمهيداً، ثم يطمع أن أزيد) المدثر:١١.

ولقد حذر الله تعالى المؤمنين الصالحين من أن يفتنوا بحال هؤلاء الناس فقال:(ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) ابراهيم: ٤١.ونبهنا رسول الله(ص) إلى هذه السنة الالهية في قوله: (إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب، وهو مقيم على معصيته، فاعلموا أن ذلك استدراج)[16]١٦وفي قوله في الحديث الآخر:(إذا أراد الله بعبد خيراً عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا)[17]١٧ويقول أيضاً عليه الصلاة والسلام:(من يرد الله به خيراً يصب منه)[18]١٨.

فلماذا لا تحملك معرفة هذه الحقيقة على شكر الله تعالى والتجمل بالصبر على بلائهن إذا رأيته قد ابتلاك من حيث عافى غيرك. فربما كنت ممن آثرك الله برحمته فعجل لك من المكروه ما يكفر به عنك الأوزار ويشدك إلى حمى الله تعالى وظل عبوديته؟!...

على أني أذكرك مرة أخرى بأن صدق هذه القاعدة لا تستدعي القدرة منك على تطبيقها بالنسبة لمختلف أفراد الناس. فأنت أعجز من أن تبلو دخائل الناس وتطلع على دقائق أحوالهم مع الله عز وجل والشريعة ميزان يقاس به ظاهر أحوال الناس، ولكن بواطن الأمور لا يطلع عليها إلا علام الغيوب، وإنما تكون تربية الله لعباده حسب ما يعلمه من دقائق أحوالهم. لا حسب ما تراه من ظاهر تصرفاتهم.

***

مَنطِق العبودية

---

[15]١٥ ليس معنى هذا الكلام أن المعصية قد تكون في بعض الحالات أفضل من الطاعة، بل المعصية شر دائماً والطاعة خير دائماً. ولكن المقصود أن المعصية التي يتلوها من العاصي الندم والتذلل أمام الله بسببها حتى يوريه ذلك انكساراً في النفس، ينمحي وزرها عن العاصي إن لم يعد إلى مثلها، وأن الطاعة التي يتلوها من الطائع تعاظم بها واستكبار على الآخرين بسببها ينمحي عن صحيفة العبد ثوابها وجميع آثارها. فينال ذلك العاصي بتذلله وانكساره ثواب التوبة، وينال هذا الطائع بمباهاته وتعاظمه وزر التكبر والعجب.

[16]١٦ رواه أحمد والطبري والبيهقي في الشعب باسناد حسن.

[17]١٧ أخرجه أحمد والطبراني باسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن معقل مرفوعاً ومتصلاً.

[18]١٨ رواه البخاري.

كل هذا الذي ذكرناه،يدخل تحت منطق البحث والنقاش القائمين على أساس النظر العقلي المجرد.
فأما إذا التفت الباحث إلى ذاته، وتعرف على هويته وأدرك أنه عبد مملوك لله عز وجل، يتصرف به كما يريد . فإن الاستشكال أو السؤال يصبح غير سليم ولا وارد في حقه. فإن المالك من شأنه أن يتصرف في ملكه كما يشاء وحسب الحكمة التي يراها ويتخيرها، وليس لأحد مهما كان، أي امتياز في أن يتدخل في شأنه باعتراض أو اقتراح أو استشكال، فضلاً عن أن يكون المتدخل هو المملوك نفسه.
حسب المسوغ حينئذ، لما يفعله الله بعباده، أنهم عبيده، وأنه يحقق فيهم معنى عبوديتهم له، ويحملهم على الخضوع لذلك طوعاً أو كرهاً. وهذا المسوغ يعبر بحد ذاته حكمة كافية للإجابة عن هذا السؤال.
وإذا لاحظت هذا المعنى، لم يعد لكلمة(العدالة) بمعناها المتداول، مكان في هذا البحث من حيث هو. فإن شيئاً من سلطان هذه الكلمة، ما ينبغي أن يرد أو يعترض على ما يفعله المالك بمملوكه الحقيقي. فإن كل ما يفعله به حق وعدل بالمعنى المطلق.
ذلك لأن الظلم هو تصرف الإنسان بملك غيره بدون إذن منه. فكيف يتصور أن ينسب هذا الوصف إلى الله عندما يتصرف بملكه الحقيقي الذي لا دخل لأي أحد فيه؟!..
وإنما يطلق(العدل)، بمعناه النسبي، المتداول، على الطرف الآخر الذي يقابل (الظلم)، لأن كلاً منهما يقوم على أقصى طرف لموضوع واحد، ألا وهو التصرف في ملك الغير. وهذا الموضوع غير متصور في حق الله تعالى مطلقاً.
وإذا نسب العدل إلى الله تعالى، فإنما هو معنى من معاني تفضله عز وجل على عباده، فقد كتب الله على نفسه أن يقيم لعباده ميزاناً يوم القيامة يكشف به عما قد اقترف كل منهم من سيآت أو قدم من طاعات، فيجزيه على كل ذلك، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وهذا ما يفعله الحاكم في رعيته والقاضي بين خصومه. وإذ كان هذا الفعل منهما معتمداً على ميزان العدالة في الحكم، فقد أقيم الحساب والميزان يوم القيامة على ميزان هذه الكلمة نفسها. وهو جل جلاله لو شاء لزج بجميع عباده إلى قعر هاوية من النار أو جمعهم في نعيم فضله وجناته، دون أن ينال فعله هذا من ميزان العدالة منالاً ما، أو يوصف بشيء من الظلم.
ومن ثم أجمع جماهير المسلمين على أن الله تعالى لا يجب عليه شيء.
كما أجمعوا على أن صفة الحسن والقبح في الأشياء اعتباري، لم تنشأ إلا بخلق الله تعالى وإيجاده. أي فهو الذي وسم بعض الأشياء بسمة الحسن فكانت مستحسنة من الشرع، ووسم بعضها بسمة القبح فكانت مكروهة ومحظورة منه. ولو شاء لعراها عن هذه السمة فلم يكن شيء منها مطلوباً ولا مكروهاً.
والقبح الذي نزه الله عز وجل عنه، هو الذي قضى بكونه قبيحاً. والكمال الذي نثبته له عز وجل هو الذي قضى بكونه كمالاً. وإذن فكل ما يفعله الرب بعبده، كمال لا ريب فيه، وليست فيه شائبة ظلم أو قبح.
وإدراك هذه الحقيقة أساس لا بد منه في فهم كل من معنى عبودية الإنسان لله، وألوهية الله على جميع خلائقه.
فإذا علمت أنك عبد مملوك لله عز وجل، خلقك من العدم لأنه أراد ذلك، وسيردك إلى العدم إذا شاء ذلك فأي حق لك في أن تتدخل فيما لست شريكاً مع الله فيه، فتسأله: لم أغنيت هذا وأفقرت ذاك، وماذا جنى هذا حتى شوهته وأشقيته وماذا أفاد الآخر حتى أسعدته وعافيته؟!..
نعم، لك أن تتساءل، وانت خاضع تحت سلطان العبودية، عن الحكمة!. وقد عرفت الحكمة بتفصيل لا مزيد عليه في الصفحات الماضية.
ولكن ليس لك أي حق في أن تتجاوز حدود عبوديتك التي لن تستطيع أن تتجاوزها مهما حاولت، لتنتقد أو تعترض!.
إن كنت معترضاً ولا بد، فلتعترض على مالكية الله لك ولسائر عباده، فهل أنت على استعداد لتفعل ذلك؟!
وإذا كان امتلاك الله تعالى الدنيا بما فيها حقيقة واقعة، فما أنت والدخول فيما لا يعنيك من شأن مالك يتصرف في ملكه كما يشاء؟!.
سألني رجل لقيني في أحد المساجد: طفل واحد ليس لي سواه، إستلبه الله مني وأنا أشد ما أكون حباً له، فلماذا فعل بي ذلك، وما أعلم أني عصيته في طاعة أو قصرت معه في واجب؟!.

قلت له: ربما لم تكن قد قصرت في شيء من واجبات الله عليك، ولكن لا دخل لهذا بما تسأل عنه. فالطفل ليس ملكاً لك ما تظن، بل كلاكما ملك لله عز وجل، وقد شاء أن يستودعه عندك إلى حين ثم يستلبه منك. وقد أخبرك بأنك عبد له وأن عليك أن تحقق هذه العبودية بالرضى عن كل ما يقضيه فيك. فإن لم تحقق عبوديتك له طوعاً، تحققت فيك كرهاً. والفرق بين الحالتين أنك تحرز في المرة الأولى مثوبة الله وفضله، وتحرز في المرة الأخرى عقوبته وعذابه، وأنت على كلا الحالين لم تتحرر عن شيء من سلطان العبودية له.

وقلت له: إنك اليوم تعترض وتشكو..فهل تستطيع أن تثبت على هذه الحال؟!.

هل تستطيع أن تظل كما أنت اليوم . في نقدك واعتراضك . عندما ينتهي نصيبك من العمر في هذه الحياة الدنيا، وتمتد ذاوياً على فراش الموت، ويأتي الرسول الموكل بقبض روحك، فتناقشه فيما جاء من أجله وتبعث معه إلى الله بنقدك واعتراضك؟.

إنك لتعلم أنك تكون في تلك اللحظات مستسلماً بكل كيانك لقرار الله وحكمه فيك، وستغدو إذ ذاك كتلة من الذل والضعف، تنطق بالانصياع لمالك الكون كله.

فلماذا لا تخضع اليوم منشرحاً راضياً لهذا الذي ستخضع له غداً ذليلاً مرغماً؟!.

لماذا يتجاهل العبد أنه عبد، وهو يعلم أن التجاهل لا يغير شيئاً من واقع عبوديته له؟..

***

ومع ذلك، فقد قضى الله تعالى . منة منه وفضلاً . بان يهبك الأجر العظيم على اعترافك بعبوديتك له وانصياعك لأحكامه فيك.وأنت لو لم تعترف بذلك ولم تنصع لأوامره وأحكامه، ما نقص ذلك من ملكه شيئاً ولا افادك انعتاقاً ولا تحرراً.

يبتليك الله بالفتن، ثم يمنحك الأجر على ذلك إن صبرت.

ويمتحنك بألوان النعيم، ثم يكتب لك الأجر على ذلك أيضاً إن شكرت.

وتطوف بك الشدائد، ثم يسكب في قلبك برد النعيم والانشراح، إن أنت أدركت هذه الحقيقة وآمنت بها.

يقول في محكم كتابه: (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) آل عمران:١٥٥.

فقد قضى، إذا، في عباده بشريعة المحنة والابتلاء وذلك حق من حقوق مالكيته لهم.

وكتب على نفسه لهم الرحمة والأجر، وتلك منة تفضل بها عليهم.

وجعل ثمن هذا الأجر، كلمة واحدة يقولونها منبعثة من قلوبهم، ثم يجعلون منها عزاءهم وسلواهم: إنا لله،وإنا إليه راجعون.

وتأمل في هذه الكلمة العلوية، لتدرك عظيم ما استودعته من ينابيع الراحة واليقين.

تقول بملء قلبك: إنا لله، فتذكر بذلك أنك عبد الله، أي مجرد سلعة في ممتلكات الرحمن، سلعة ليس لها من أمر نفسها شيء!.. وسواء وضعت في أعلى الرتب أو دفنت تحت الذر، أو حتى تسلل اليها الروح وانتابتها الحركة والشعور، فهي على كل حال سلعة!.. أمرها بيد من يملكها.

وتقول بعد ذلك: وإنا اليه راجعون، فتتذكر أن لك من بعد الموت رجعة إلى الحياة ولقاء مع الله عز وجل. وأن كل ما احتسبته صابراً عند الله تعالى من المصائب والآلام يرتد اليك مثوبة ونعيماً وسعادة، لا انقطاع لها ولا زوال. فأنت من الدنيا وأحداثها لست إلا في ساعة كدح وحرث، ولست من الحياة الآخرة إلا في ساعة ربح وحصاد.

ومن خلال ترادك لهذه الكلمة ويقينك بمضمونها، تتنزل عليك من الله تعالى الرحمة والرضوان.

وإذا، فإن منطق العبودية يقضي بالتسليم، ولا ينسجم مع أي اعتراض أو نقاش. وعندما تدرك جيداً بأنك عبد، تجد نفسك واقفاً في مقام الخضوع والتسليم.

ومَنطِق الحُبِّ

أما إذا ايقظت الفؤاد إلى ذكر الله تعالى وعظيم صفاته المختلفة ثم اخذت تتبهه إلى ذلك كلما أدركته الغفلة بالدنيا وأهوائها، ورحت تتأمل مختلف آلاء الله تعالى عليك . وصائب الدنيا كلها لا تعدو شيئاً أمام نعمه الكثيرة المختلفة . واستمر بك هذا الحال، حتى لم تعد الدنيا بما فيها أما عينيك إلا صفحة صافية نقشت فوقها صفات الله جل جلاله: فالنعمة التي تمتد بها إليك كف إنسان لست إلا مظهراً لصفة المنعم الحقيقي. الكمال الذي يتراءى في تدبير أي صنع، أو مظهر أي مخلوق، ليس إلا انعكاساً لصفة الكمال في مندر الكمال الذاتي. والجمال الذي يأخذ بلبك ويروق لعينيك ليس إلا أثراً من آثار الجمال في مبدع الجمال كله. والعلم الذي تعظم مكانته في صدرك ليس إلا هي من لدن علام الغيوب . نقول: أما إذا أيقظت الفؤاد لهذه الحقائق الكبرى، وعشت معها بوجدانك حيناً من الزمن، فإنك تقع تحت تأثير محبة عارمة لرب السموات والأرض، إذ تتعلق بقلبك خيوط هذه الصفات التي تتمثل فيها دواعي المحبة على اختلافها، ثم تشده وتنصرف به إلى مصدر واحد هو مصدر هذه الصفات كلها وهو الله جل جلاله، فيتجمع بذلك شتات الأهواء في هوى واحد لا ثاني له، ويتحد المحبوب بعد أن كان موزعاً في مظاهر وأسباب مختلفة. هنالك تخشع منتشياً بسكر هذا الحب، وتناجي محبوبك الواحد الأحد من أعماق قلبك قائلاً:

كانـــــــت لنفســــــي أهــــــواء مفرقــــــة	فاســـتجمعت مـــذ رأتـــك العـــين أهـــوائي
فصــــار يحســــدني مــــن كنـــت أحســـده	وصـــرت مـــولى الـــورى مـــذ صـــرت مـــولائي
تركــــــت للنـــــاس دنيــــــاهم وشــــــأنهم	شــــغلاً بــــذكرك يـــــا دينـــــي ودنيـــــائي

وعندئذ يسقط . في شعورك . الفرق بين آلام المصائب التي قد تعاني منها، ولذائذ النعم التي تتمتع بها، ما دام كل منها مطبوعاً بطابع الحكم الإلهي وإرادته.

بل المحب من شأنه أن ينتشي تلذذاً بالخضوع لما يقضي عليه به المحبوب، إذ كان له في ذلك مجال التعبير عن مدى حبه له وتعلقه به.

وبهذا الشعور عاش الأنبياء والصديقون، وبهذا الشعور اجتاز الربانيون معبر هذه الحياة الدنيا، وانغمسوا في مصائبها وأوجاعها دون أن يشعروا بشيئ منها، فضلاً عن أن يتبرموا بها ويضجروا منها أو يعترضوا على الله فيما قضى عليهم بها.

وما اشتدت المحنة بواحد من هؤلاء المحبين إلا وأثارت في قلبه مزيداً من كوامن الحب والشوق لمن أنزل به تلك المحنة.

لقد اشتد رحاء الموت برسول الله (ص) وأطبق عليه، عذابه من كل جانب، وهو غارق في مناجاة مولاه قائلاً: اللهم بالرفيق الأعلى.. اللهم بالرفيق الأعلى..

ولما نزل الموت بمعاذ بن جبل رضي الله عنه، جعل النزع يتغشاه بشدة، فكان كلما أفاق من غمرات الموت فتح عينيه ثم قال: أي رب!.أخنقني خنقانك، فوعزتك إنك لتعلم أن قلبي يحبك..

وابتلي عمران بن حثين رضي الله عنه بمرض عضال أثبته على سرير من الجريد ما يقارب ثلاثين عاماً، حتى ذاب لحمه ووهن عظمه. وزاره مرة أخوه فبكى، فقال: ما يبكيك؟ قال: هذه الحال العظيمة التي أنت فيها!..

قال: لا تبك، فإن أحبه إلى الله تعالى أحبه إلي.

***

فإذا أكرمك الله تعالى بذرة من عنايته، وأورثك شيئاً من نعيم هذا الحب، انمحقت من نفسك مشاعر الهموم ونوازع الشهوات، وغدا القلب مستغرقاً بلذة عارمة لا يقوى على وصفها إلا من أكرمه الله بمذاقها. بل تصبح ملاذ الدنيا كلها أدنى رتبة من لذة هذا الحب الإلهي إذ يستولي بسلطانه على القلب.

وفي غمار الشعور بهذه المحبة، قد ينجرف المحب في بعض الشطحات الخارجة عن سلطان إرادته، كأن يعلن زهده في الجنة ونعيمها، أو لا يهتم بالنار وعذابه، إذ كان قلبه منصرفاً عن لذائذ الدنيا والآخرة ومخاوفهما إلى التعلق بذات الله تعلى والاستغراق في مشاعر الشوق إلى لقائه، فهو لا يريد إلا نعيم القرب من مولاه ولذة النظر على وجهه الكريم.

وربما حملته هذه الحال على التعرض لابتلاءات الله تعالى ومصائبه، ليعلن من خلال تجشمها ومعاناتها عن مدى حبه لله تعالى وعن شدة رضاه بكل ما يأتيه من طرف المحبوب.

ولكن كمال الأدب مع الله تعالى ينافي كل ذلك.وإنما عذر الذين وقعوا في هذه الحال أنهم غلبوا على أمرهم، وأن مشاعر قلوبهم تغلبت على رقابة أفكارهم.

ولقد كان رسول الله (ص) أشد الناس حباً لله عز وجل، ومع ذلك فقد كان لا يفتأ يسأل الله العفو والعافية من المصائب كلها. فإذا نزلت المصيبة رضي بها وصبر عليها واحتسبها عند الله عز وجل. وكان يسأل الله في دعائه الجنة ويستعيذ به من النار.

وقد رووا أن أحدهم انشد يقول: في غمرة مشاعره الوجدانية التي سيطرت على قلبه:

عذب بما شئت غير البعد عنك تجد

أوفى محب بما يرضيك مبتهج

فابتلاه الله تعالى بحصر البول، وناله من ذلك عذاب شديد برح به، فكان يخرج إلى الأطفال في الشارع يعطيهم الدراهم ويقول لهم :أدعو الله لعمكم الكذاب!.

وعلى كل، فإن هذا الحب، إذا ألجم بلجام الشريعة، كان ذروة المقامات العالية التي يرقى اليها الصالحون والربانيون. وهو أعظم دواء لكل ما قد يعترض له الإنسان في دنياه من الفتن والمحن على اختلافها.

أما إذا إقفر القلب منه فلا بد أن تتسلل اليه قوانص الشهوات والأهواء وزخارف الدنيا وملهياتها. إذ القلب لا يمكن أن يعيش في فراغ. بل لابد أن يتعلق به شيء ما، كالمرآة لا بد أن تثبت فيها صورة ما. فإذا لم ينبض بحب فاطر السماوات والأرض، كان لابد أن ينبض بحب ما دونه مما قد يروق له من مظاهر الكون.

وعندئذ يعظم عليه وقع المصائب والابتلاءات على اختلافها، لما فيها من معاكسة القلب وأهوائه، وكلما عظم علق القلب بتلك الأهواء، عظم وقع المصائب على النفس وضعفت فيها طاقة التحمل والصبر.

من أجل ذلك أجمع علماء التوحيد على أن محبة الله ورسوله ركن أساسي في بنية الإسلام والإيمان.

***

وربما ناقشك في هذا الحق، من يدعي بأن محبة الله تعالى ليست أكثر من طاعته وبأن المحبة القلبية المعروفة لا يمكن أن تكون من العبد لربه، لأن القب لا يتعلق إلا بالمحسوسات والله منزه عنها.

فاعلم أنه ما من عاقل إلا ويعلم بأن الحب سائق إلى الطاعة، وليس هو الطاعة نفسها. إذ الطاعات تحتاج إلى ما يحمل الإنسان على فعلها، ولا يحمله على فعلها إلا إيمان مشفوع بحب. وبمقدار شدة الحب وغلبته تزداد الطاعة أو تقل. ولولا هذه الحقيقة لما تفاوت الصحابة في الطاعات وتحمل المشقات مع ما هو معروف من تساويهم في أصل الإيمان.

وليس صحيحاً أن القلب لا يتعلق إلا بالمحسوسات.فما أكثر ما ينصرف القلب إلى محبة معان مجردة لا تتجسد في شكل مرئي ولا محسوس، كالعلم والكرم والشجاعة والرحمة والذكاء.. بل إن للقلب أحوالاً غريبة وعجيبة في هذا المجال، لا يعلم كنهها وأسرارها إلا فاطرها العزيز الحكيم، فأي مخلوق هذا الذي يزعم أنه قادر على ضبط نوازعه وحدود أشواقه.

ومع ذلك كله، فإن واقع حال الصالحين والربانيين الذين امتلأت قلوبهم بحب الله عز وجل أعظم وابين دليل على بطلان هذه الدعوى وشدة مكابرتها للواقع الملموس.

إذا كانت محبة الله ليست أكثر من طاعته، فما معنى قول معاذ بن جبل وهو يكابد غمرات الموت: فوعزتك إنك لتعلم أن قلبي يحبك؟..وهل كان شيء آخر غير قلبه ينبض إذ ذاك بهذه الكلمات؟..

وما معنى قول الله عز وجل وهو يصف النخبة من عبادة: (يحبهم ويحبونه)؟.

والعجب من هؤلاء الناس أنهم ينكرون المجاز في القرآن، ويمنعون التأويل في مثل قوله تعالى: (الرحمن على العرش استوى) وقوله (يد الله فوق أيديهم)، وأن اقتضاهم ذلك تجسيد الله تعالى وجعله شبيهاً ببعض مخلوقاته، ثم يبادرون إلى تأويل قوله (ويحبونه) بالطاعة واتباع الأوامر، دون أن يكون ثمة أي داع إلى تكلف المجازم والتأويل. فأنت لا تدري أي قاعدة هذه التي يعتمدون عليها فيما تقضيهم من تأويل مرة وإمساك عن التأويل أخرى!!..

ولكن الذي يفقه الحب الإلهي، هو من قد ذاق فؤاده طعمه!.. أما ذاك الذي كان الدين في كيانه مجرد أفكار تظل حبيسة في عقله ليظل قلبه وقفاً على مظاهر الدنيا وأهوائها المختلفة ترتع فيه كما تشاء، فأمر طبيعي جداً أن لا يفقه شيئاً عن حقيقة المحبة الإلهية وأثرها في القلب.

***

خلاصة القول

ويتلخص كل ما ذكرناه في أمرين أثنين:

أولهما: أن تتعرف على ذاتك وحقيقتها قبل كل شيء، فتدرك أنك عبد مملوك لله عز وجل. فإن معرفة الإنسان لذته هي المحور الذي تدور عليه معرفته لكل ما قد يراه من حوله. وبدون وجود هذا المحور على وضعه القويم، تظل سائر أنواع المعرفة الأخرى مهزوزة ومحجوبة عن العقل وراء كثير من الشكوك والأوهام.

وبمجرد أن تتم معرفتك لذاتك على نحو دقيق سليم، تتهاوى جميع مشكلاتك الفكرية المختلفة عن الكون والإنسان والحياة، وتتجلى لك من ورائها سائر الحقائق التي شرحناها بتفصيل في الصفحات السابقة وتكسبك تلك المعرفة عندئذ حياة طيبة تمتد على جميع أيام عمرك. وهي العهد الذي قطعه الله تعالى على نفسه لعباده، إذ قال: (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة).

وأنظر إلى التعبير بالحياة الطيبة، كم هو شامل ودقيق. فهي قد تكون في ظل فقر أو غنى، وقد تكون فيها آلام وأسقام أو صحة وعافية. ولكنها على كل حال حياة طيبة تذيب بطيبها وطأة جميع ما قد يطوف بالعمر من المحن ومظاهر الآلام. وتلك هي الغاية، وذلك هو سر السعادة. وهو أول الأمرين.

ثانيهما: أن تعلم بأن هذه الحياة التي تعيشها اليوم، ليست إلا فصلاً قصيراً من قصة الحياة الكاملة التي جعل الله عز وجل من هذا الحيوان الناطق العجيب بطلاً لها.

فكل مشهد تبصره عيناك في هذا الفصل، له تتمة أو ذيول في الفصل الذي يليه.

ومن ثم، فإن احداث هذه الحياة لا تقوم تقويماً صحيحاً إلا من خلال فهم فصول القصة بأكملها، وأي حكم عليها من خلال الانحصار في فهم هذا الجزء اليسير وحده، يعتبر جهلاً بالحقيقة وضرباً من الوهم والأنخداع.

وإن شئت فقل: إن هذه الحياة التي تعيشها اليوم، ليست إلا رقعة صغيرة في لوحة كبرى لمنظر شامل عظيم وهيهات أن تدرك قيمة هذه الرقعة أو تفهم شيئاً من موقعها ومضمونها إلا من خلال رؤية مستوعبة دقيقة إلى اللوحة بأكملها.

وإنما شأن من ينتقد حكمة الخالق جل جلاله، عندما يبصر من حوله مظاهر البؤس والآلام، كشأن ذاك الذي يبصر الفصل الأول من رواية على المسرح ثم يسرع فيحكم عليها، من خلال ذلك الفصل وحده بالفساد والاضطراب أو فقد معنى العدالة في وحيها ومفهومها..

أو كالذي يدنو فيحملق في رقعة صغيرة من لوحة رائعة عظيمة أبدعتها ريشة فنان، فيحكم عليها من خلال ما يبصره فيها من الخطوط المتموجة والألوان المضطربة المتداخلة!..

ومن أعجب العجب أن يوقن إنسان بوجود الله تعالى وبكونه إلهاً حكيماً يتصف بكل صفات الكمال ويتنزه عن جميع النقائص، ثم لا يؤمن بهذه الحقيقة، بل يصر على أن هذه الحياة الدنيا هي المبدأ والمنتهى، وأنها ستختم على أحداثها المبتورة وصراعاتها المطلقة، فيبقى الظالم ظالماً دون أن يعاقب على ظلمه، ويبقى المظلوم مظلوماً دون أن ينال شيئاً من حقه، وتختنق العدالة تحت حكم الله تعالى وفي ظل رقابته ضمن رياح من العشوائية العاتية!.

أجل.. إن من أعجب العجب أن يوقن الإنسان بوجود الله عز وجل وعظيم حكمته، ثم يصر مع ذلك على هذا الاعتقاد!.

إن طفلاً من عقلاء الناس، لا يمكن أن يؤلف في مدرسة مسرحية عابثة بهذا الشكل. أفيؤلف الله الحكيم الخبير قصة كونه العظيم هذا على مثل هذا العبث العجيب الذي يتنزه عنه الأطفال.

وإن من أعجب العجب أن يتشبث الإنسان بهذه العقيدة عن عبث الحياة وعشوائيتها حتى وهو يسمع تحذير الله له من الوقوع في هذا الوهم الخطير: (أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لا ترجعون، فتعالى الله الملك الحق، لا إله إلا هو رب العرش الكريم) المؤمنون: ١١٤.١١٥.

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين، لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين) الأنبياء:١٦.١٧.

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار. أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أن نجعل المتقين كالفجار) ص:٢٧.٢٨.

***

يا أخي القارئ:

تأكد أنه سوف يتم مرور الناس على معبر هذه الدنيا التي تعيش فيها. ولسوف يقوم الناس لرب العالمين، وستتكامل حينئذ عناصر القصة. فما من منكوب صابر مسلم كنت تتألم إشفاقاً عليه في الدنيا، إلا وتتمنى أن لو كنت مكانه في الآخرة، وما من سعيد منعم مسرف على نفسه في الدنيا، إلا وتشفق على ما هو فيه من بؤس وضنك في الآخرة.

ولسوف تتفسر لديك إذ ذاك الأحداث العائمة التي تمر بك اليوم.

ولسوف تسمع صوت الحقيقة ينبض به الزمان والمكان كله: (اليوم تجزي كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم، إن الله سريع الحساب).

وخير من كل هذا الذي سردته عليك في رحلة هذا الكتاب: أن أضع بين يديك كلمات رائعة جامعة نطق بها رسول الله (ص) فأبدع فيها صورة مختصرة صغيرة عن قصة هذه الحياة بأكملها، وأخرج منها أمام عينيك نموذجاً صغيراً لخط هذه الرحلة الإنسانية من أولها إلى آخرها.فأسمع بأذن حرة واعية:

(ألا يارب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة،ألا يارب نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة، الا يارب مكرم لنفسه وهو لها مهين، الا يارب مهين لنفسه وهو لها مكرم، ألا يارب متخوص ومتنعم فيما أفاء الله على رسوله ماله عند الله من خلاق. ألا وإن عمل الجنة حزن بربوة الا وإن عمل النار سهل بسهوة، ألا يارب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً)[١٩][19].

وأخيراً.فإن كان شيء من هذا الكلام كله لم يقنعك بعد، فاعلم أنك في شك من وجود الله تعالى. وخير لك إذن أن تعيد النظر بدقة وحذر في فكرتك عن الله عز وجل: من أن تضيع الوقت وترهق النفس فيما لا طائل فيه.

***

[١٩][19] رواه البيهقي والديلمي في مسند الفردوس وابن سعد في الطبقات، وحزن أي طريق ذو شدة وعقبات.والربوة المكان المرتفع، والسهل الأرض المستوية. والسهوة الأرض ذات التربة اللينة.